بيتر زينجر

مؤسس حرية الطباعة في العالم الجديد

تأليف

توم جالت

ترجمة

نجاتي صدقي

الكتاب: بيتر زينجر .. مؤسس حرية الطباعة في العالم الجديد
الكاتب: توم جالت
ترجمة : نجاتي صدقي
الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575
فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

جالت ، توم
بيتر زينجر مؤسس حرية الطباعة في العالم الجديد / توم جالت
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
213 ص، **18** سم.
الترقيم الدولى: **0 – 609 – 446 –977 –978**
أ – العنوان رقم الإيداع : **23815 / 2018**

بيتر زينجر

مؤسس حرية الطباعة في العالم الجديد





الفصل الأول

المهاجرون

احتشد الرجال والنساء والأطفال على ظهر السفينة، وكانت الأشرعة تقصف فوق رؤوسهم، والحبال تقرعها قرعًا قويًا وكان بيتر، وهو صبي مديد القامة في الثالثة عشرة من عمره يستر عينيه متحاشيًا أشعة شمس الصيف المحرقة، ويتطلع صوب الخليج مأخوذًا بمنظر المدينة الصغيرة الواقعة على هذا الساحل الغريب، تستغويه أسطح بيوتها المطلية باللون الأزرق والمغطاة بألواح القرميد الأحمر.

وأشد ما استرعى انتباهه تلك القلعة الضخمة الداكنة التي انعكست أشعة الشمس على امتدادها، وانتصبت أمامها مشنقة في انتظار إزهاق روح شخص من الناس، كما أخذه منظر بيوت أجراس كنائس نيويورك القليلة العدد ذات المسلات العالية وناطحات السحاب.

تنفس بيتر الصعداء ببلوغ هذا الميناء المقصود وكان يمسك أخاه الصغير من تحت إبطيه ويرفعه عاليا، ليرى معالم المدينة من بين رؤوس المسافرين، وقال له " انظر يا جون .. هذه هي المدينة التي سنقيم

فيها" وأضاف ضاحكًا " انظر إلى هذه الآلات الطائرة فهي تلف الحبل حول عنقك وتأرجحك في الفضاء! " .

واستأثر انتباه الصبي قارب صغير يشبه قوارب الهنود الحمر، يسير في اتجاه السفينة مرحبًا بمقدمها، وفيه زنجي قوي البنية يجدف، وموظف مهمته تفتيش السفن القادمة من الخارج وجمع أكياس البريد، وكان الرجل قصير القامة، مستدير منتفخ الأوداج، غليظ الشاربين مهيب الشكل يرتدي والوقت حزيران معطفًا رماديًا طويلًا واسع الكمين.

فارتقى سلمًا من الحبال إلى أن بلغ متن السفينة، وألقى نظرة إلى ما حوله وسعل وأمسك أنفه، فركاب السفينة قضوا مدة شهرين ونصف الشهر، وهم يعبرون المحيط جياعًا عطشى، لقد كانوا كثرة حتى أن متن السفينة لم يستوعبهم كلهم، فظل القسم الأكبر منهم قابعًا في العنابر، قال الربان مغمومًا: لقد أبحرنا بثلاثمائة مسافر والموجودون الآن هم مائتان وسبعون فقط، فسأل الموظف: ماذا حل بالبقية؟ قال: ليس في السفينة طبيب يسجل أسباب الأمراض والوفيات، ويلوح لي أنهم سقطوا ضحية الحمى فالملكة دفعت نفقات سفرهم وها هم أمامك خذهم إلى الشاطئ!.

وكان والدا بيتر قد هجرا بيتهما في ألمانيا بسبب الحرب مع فرنسا، وأنجبا بيتر وهما مختفيان في " الغابة السوداء" ، ثم فرّت الأسرة بعد سنين قليلة من وجه الجنود الفرنسيين والألمان على السواء خشية أن يفتكوا بها، بسبب عقيدتها البروتستانتية، وانضمت إلى الآلاف من النازحين من منطقة " بالاتين السفلى" الواقعة على نهر الرين، وعملت

معهم في حقول هولندا الزراعية، غير أن طاغية فرنسا لويس الرابع عشر شن هجومًا على أتباع العقيد البروتستانتية، فأحرق بيوتهم ومزروعاتهم وكاد يفنيهم، لو لم تسرع الملكة "آن" وترسل أسطولًا من السفن إلى روتردام، ليقل إلى إنكلترا ثلاثين ألفًا من اللاجئين.

غير أن الكثير من هؤلاء اللاجئين لم يجدوا لهم عملًا في إنكلترا، ففرضت عليهم الحكومة الإنكليزية بعد سنتين السفر إلى أمريكا، واعدة بمنحهم قروضًا مالية إذا هم ارتادوا أحراش الصنوبر الأمريكية، ليستخرجوا منها القطران وصمغ البطم اللازمين للسفن الإنكليزية.

وأسرعت أسرة " زينجر" للإبحار إلى أمريكا متحمسة وكلها رجاء بأن تجد الهدوء والراحة بعد شقاء طال أمده، ولتنشئ لها مزرعة في العالم الجديد، وتكسب عيشها بعرق الجبين، إلا أن الحمى نفذت إلى حجرة الأسرة، وكان بيتر شاهدًا على وفاة أبيه في عرض البحر، فما الذي يستطيع بيتر فعله وهو شاب في الثالثة عشرة من عمره، ومعه أمه الأرملة وأخوه الأصغر وشقيقته .. أجل، ما الذي يستطيع فعله في هذه المدينة المجهولة ذات القلعة الداكنة والمشنقة على أهبة الاستعداد لإزهاق روح شخص من الناس ؟ ..

وما أن قيدت السفينة إلى الرصيف الحجري حتى أعلن الموظف بصوت عالٍ " ليخرج إلى الميناء كل شخص يستطيع السير على قدميه، وأما المرضى فليظلوا في أماكنهم إلى أن يصحّوا" ، وهز كتفيه وترك السفينة والركاب في إثره، سار الموكب في الشوارع، موكب طويل من

المهاجرين الذين يرتدون الأسمال ويحملون على ظهورهم الحزم والرزم وكانت روائح الأطعمة المنبعثة من البيوت التي يمرون بها، تعبق في أنوفهم قوية حادة بعد هذه الأسابيع الطويلة من الحرمان التي قضوها في قطع المحيط، ولاحت نيويورك لبيتر وقتئذٍ صغيرة بالنسبة للمدن الأوروبية التي رآها، وبعد عشر دقائق من المسير اجتاز الموكب المدينة، وخرج منها إلى حقل واسع من حقول المشاع حيث أقيمت صفوف من الخيام المهترئة لإيواء المهاجرين.

والتقى القادمون في هذه الخيام زملاءهم من " البالاتين" الذين أبحروا من إنكلترا في الوقت الذي أبحروا هم فيه، ولكن عددهم قد نقص كثيرًا، فبعد أن كانوا حوالي أربعة آلاف وثلاثمائة شخص أصبحوا ثلاثة آلاف فقط، فحمى التيفوس قد عصفت بهم، والناس يطلقون عليها "حمى البالاتين" .

كانت مدينة الخيام مقسمة إلى ست مجموعات، ولكل مجموعة آمرها ورحب بأسرة زينجر الصغيرة رجل من البالاتين، وهو من معارفها حين كانت في هولندا وفي إنكلترا وأنزلها في خيمة مع أربع أسر أخرى، وقدم لها بعض القطع المالية بمثابة قرض من الحكومة.

انصرفت أم بيتر في مساء اليوم الأول إلى إعداد العشاء مع بعض النسوة أمام الخيام، وجلس بيتر في خيمة يصغي إلى أحاديث الرجال، فاسترعى انتباهه عدد من الكتب وضعت في خزانة صغيرة بالقرب من رجل مريض، فأخذ يقلبها بين يديه ويتصفحها.

لقد تملكت الصبي في السنين الأخيرة رغبة ملحة في التعلم والمطالعة، غير أن حياة التجوال كانت تحول دون تحقيق هذه الرغبة، فلم يتردد إلى المدرسة إلا قيلًا، ولم يطالع كتابًا إلا فيما ندر، فسأله الرجل الأبيض أعلمك أبوك الألفباء أيها الصبي؟..

فأجابه بيتر مترددًا: علمني حروف الهجاء قليلًا باللغة الهولندية حين كنا في روتردام، وإنني أرغب الآن في الاستزادة.

نهض الرجل الأبيض مستندًا إلى كوعه وأخرج كتابًا من الخزانة وناوله لبيتر قائلًا: خذ هذا الكتاب فهل تستطيع فهمه؟.. ، إنه كتاب في الجغرافيا كتب باللغة الهولندية وهذا فصل خاص بأمريكا فاقرأه..

وبعد أن تناول القوم العشاء استلقى بيتر على الحشائش اليانعة، وراح يطالع الكتاب على ضوء مساء الصيف الطويل، فاستغوته المطالعة وطغت على تفكيره بصدد كسب قوته في هذه الأماكن النائية المجهولة، وقد استعصى عليه فهم بعض الكلمات، لكنه تمكن في ذلك المساء من حل رموز صفحة ونصف الصفحة تتعلق بوطنه الجديد أمريكا.

فالسطور التي طالعها أدخلت السرور إلى قلبه، وكشفت له عن مئات الأميال من الغابات والمروج الفسيحة المليئة بالدببة والذئاب والهنود الحمر، لقد شوقته هذه السطور إلى المزيد من المطالعة فعاهد نفسه على أن يتعلم ويطالع كلما سنحت له الفرصة.

إن الكتب في نظره لشيء رائع نفيس، والشرف العظيم لمؤلفيها وطابعيها، وقد تخيل نفسه هنيهة أنه يؤلف هذه الكتب ويطبعها والناس يقدمون له آيات التقدير والإعجاب.

كان الرجال في هذه الآونة يتناقشون في التصريح الذي أصدره الحاكم الجديد، بصدد تخفيض أسعار المواد الغذائية، يستشف من أحاديثهم أنهم راضون عنه ، غير أن نجارًا ألمانيا جاء إلى أمريكا منذ شهرين قد أرسل قهقهة عالية وقال: ليس كل الحكام أناسًا طيبين، وإلا لم زجّ الناس الحاكم السابق في السجن ! ..

ولما كان بيتر لا يفقه من السياسة شيئًا كثيرًا، فقد رفع رأسه دهشًا لما سمعه من النجار الألماني وقال محتجًا: ولكن لا يجوز للناس أن يزجوا حكامهم في السجون !..

فرد عليه النجار وهو يقتل بعوضة وقفت على ذراعه وقال: ولكنهم يفعلون ذلك هنا، فلو لم يرش صاحب السعادة سجانه ليطلق سراحه، لبقى أسير القضبان الحديدية حتى الآن، والتفت إلى الخلف وهو يمسك البعوضة بين أصبعيه، وأشار إلى بعيد قائلًا: هناك السجن إنه يقع إلى الجهة اليمنى من مدخل دار الحكومة.

فحول الرجل أنظارهم معًا نحو طريق ضيق موحل يشق المدينة وينتهي إلى بناية ضخمة من القرميد، وشاهدوا ضوء شمعة يشع من نافذة أحد أقسامها، إنه يشع من السجن الذي حدثهم عنه النجار، فتخيل بيتر

الحاكم الملكي وهو يرفل بحلته الحريرية والخدم من حوله، ورهن إشارته فاستغرب كيف تزج تلك الشخصية في مثل ذلك المكان الحقير، واستسخف الأمر وضحك له كثيرًا ولم يدر بخلده وقتئذٍ أنه هو نفسه سيزج به في هذا السجن في يوم من الأيام.

الفصل الثاني

بيتر يبحث عن العمل

أخذ بيتر يجوب المدينة الصغيرة برفقة أخيه الصغير، فوقفا أمام حانوت للأحذية وتطلعا إلى حذاءيهما المهترئين، ثم أخرج بيتر إبهام قدمه من ثقب في مقدمة حذائه وقال لأجير صانع الأحذية الجالس عند الباب: يا سيدي الأجير أتصلح لي حذائي إذا غنيت لك أغنية مرحة؟ .. .

فنهض الأجير غير مكترث بالصبي وولج الحانوت قائلًا له: اذهب في سبيلك أيها الصبي ! .. ، وتابع الصبيان السير صوب الميناء، فجالت في خاطر بيتر في هذه الأثناء فكرة رأى فيها الحل الوحيد لكسب قوته، فتوقف فجأة وقال لأخيه: أصغ إلي يا جون إنني أرغب في أن أكون أجيرًا وهذا هو السبيل الوحيد الذي يعلم المهن.

وبلغا في سيرهما منطقة الميناء، ولاحت لهما صواري السفن من خلف أسطح البيوت وسمعا ضجيجًا حادًا صادرًا عن حانوت قريب فاجتذبهما هذا الصوت، فتقدما من باب الحانوت ووقفا يرقبان ما يجري في داخله، فشاهدا شابًا يعمل على آلة خشبية ضخمة وهي أشبه بخوان

لها في جانبيها عارضتان خشبيتان ثقيلتان تسندان عمودًا لولبيًا في سمك ستة قراريط يقف بينها مباشرة.

أدار الشاب الخشن اللولب ورفع غطاء مثبتًا إلى أسفله ثم جذب طلحية من الورق تقع بين هذا الغطاء والخوان، ووضع بدلًا منها طلحية أخرى، ثم أدار اللولب إلى أسفل ثانية بواسطة عتلة طويلة تتصل بالقسم الأعلى منه، وشد العتلة بكل ما أوتي من قوة، تساءل جون: ما هذه الآلة يا أخي؟ .

فأجابه بيتر: لقد رأيت آلة شبيهة بها في هولندا، وهي تعمل على هذا النحو: لنفترض أنك الورقة وأنا الآلة الضاغطة، ووضع يده اليسرى على رأس جون بشدة، وأمسك بيده اليمنى عتلة وهمية في الهواء، ودار حول أخيه متظاهرًا أنه يضغط العتلة ضغطًا شديدًا، ويتذمر من المجهود الذي يبذله، ويحدث صخبًا مقلدًا ضجة الآلة في حين يضغط رأس جون بيده اليسرى، فينوء ذاك تحت وطأة هذا الضغط حتى كاد وجهه يمس أرض الشارع الموحلة.

وصرخ جون وهو واقف على ركبتيه: كفى يا بيتر كفى لقد انطبعت تماما!..

وتقدم منهما صاحب المطبعة، وهو رجل تبدو عليه أمارات الجد والوقار، فأمرهما قائلا: ارحلا عن هذا المكان ألا يوجد لكما عمل آخر سوى إحداث الصخب في الشوارع ! ..

كان صاحب المطبعة قوي البنية، عريض الكتفين يرتدي صديرية كثيرة الأزرار لا تتسع لصدره المنتفخ، فوق قميص أبيض اللون ملتف الكمين، فرمق الصبيين بعينيه الصغيرتين، وحاول أن يمسح العرق عن جبينه بقفا يده المتسخة بالحبر الأسود، وقال لهما ثانية: ما بالكما لا تغادران هذا المكان؟..

فأجابه بيتر إنني العامل الطابع !.. ، وقال له جون: وأنا الورق ألا تريدني أن أكون كتابًا؟.. ، وأضاف بيتر مشيرًا إلى لوحة معلقة فوق الباب وهي تصوّر الكتاب المقدس وقال: أجل مثل هذا الكتاب المعلق تمامًا!.. ، سدد الرجل عينيه الحادتين إلى بيتر وقال: يلوح لي أنك قوي العضل أيها الصبي كم لك من العمر؟ فأجابه بيتر محاولًا إخفاء الابتسامة المرتسمة على ثغره: لي من العمر ثلاثة عشر عامًا يا سيدي، قال الرجل: غير أن هيئتك توحي أنك أكبر سنًا ، أتقرأ الإنكليزية وتكتبها؟ قال بيتر: كلا يا سيدي، فأدار الرجل ظهره لبيتر وابتعد وضفيرة شعره المستعار تهتز متبرمة.

وأسرع بيتر قائلًا: غير أني أقرأ الهولندية وأكتبها قليلًا يا سيدي، وإنني لأرغب في العمل عندكم، اغتبط الرجل لسماعه هذا القول، ونظر إلى الصبي وقال: أين تعلمت الهولندية؟ .

قال: تعلمتها في روتردام يا سيدي لقد ولدت في ألمانيا، وعشت طويلًا في هولندا، ثم أقمت بعض الوقت في إنكلترا قبل أن نأتي إلى هذه الديار، ألا تطبع كتبًا باللغة الهولندية يا سيدي؟ ..

فقال الرجل: أجل إننا نطبع الكتب بهذه اللغة أيضًا ولكن من الذي سيتولى دفع أجرة تعليمك الصنعة؟ أيدخر أبوك خمسة عشر شلنًا.

خفض بيتر نظره والاضطراب بادٍ على محياه وقال: لقد مات أبي على ظهر السفينة التي أقلتنا إلى هذه البلاد، وكان الصبي يعلم أن أمه تدخر مثل هذا المبلغ، لكنها تستعين به في إعالة الأسرة، أما هو فلم يحلم بالحصول عليه إذ يعادل خمسة عشر دولارًا بالنسبة للنقد المتداول اليوم.

فتنهد الرجل لخيبة أمله، وقال: ارحل أيها الصبي على الفور هناك أعمال كثيرة في نيويورك للصبية الكسالى المتسكعين في الشوارع من أمثالك.

ابتعد بيتر غير شاكٍ ولا باكٍ، فالوقت ليس وقت ذرف الدموع، هذا هو المصير الذي كان يتوقعه، إنه لم يتعلم صنعة تدر عليه دخلًا طيبًا، وما عليه إلا أن يبيع نفسه كخادم تابع، أو عامل يقتطع الحطب وينقل الماء ويقود العربات، أو يعمل في حفر الحفر والقبور، يقوم بكل هذه الأعمال لقاء أجور بخسة تحفظه عائشًا جائعًا، يغوص في الأوحال ويتدثر بالأسمال..

الفصل الثالث

لا مفر من العمل

لقد أنذر مواطنو نيويورك بالمرض الوبيل المتفشي بين سكان الخيام، في أراضي المشاع الواقعة إلى الشمال من "وال ستريت" ، وسرعان ما أخذ التيفوس يطل برأسه على المدينة كشبح مروع يزهق روح رجل هنا، ويختطف حياة طفل هناك، إلى أن تقرر نقل جميع البالاتينيين إلى " جزيرة نافين" ، " وقد دعيت فيما بعد جزيرة الحاكم" حيث أقاموا فيها الخيام لإيوائهم.

ووجه الحاكم هنتر رسالة إلى رؤسائه في لندن يقول فيها: " لقد انتشر المرض بين البالاتينيين المساكين، لكنهم سرعان ما تماثلوا إلى الشفاء ويقدر عدد ما فقدناه منهم ب 470 شخصٍ ، واضطررت إلى شراء ستة آلاف " آكر" من الأراضي الواقعة على نهر الهدسون، وعلى بعد مائة ميل من نيويورك لإيوائهم وسيقيمون هناك خمس قرى لسكناهم، وإنني أعجل في إنجاز هذا المشروع قبل حلول فصل الشتاء" ..

وقف بيتر حزينًا خلف جماعة من الرجال عند أكبر كوخ في "جزيرة نافين" ، وكان الرجال يتجادلون بصدد قطع الأراضي التي ستكون من نصيب كل منهم، ومثل الحاكم جورج كلارك وهو رجل

أعمال شديد الانتباه، جلس إلى خوان غطي بالورق يصغي إليهم ويعقد معهم الاتفاقيات، فكل مهاجر يوافق على استلام قطعة من الأرض يوقع وثيقة يعد فيها أن يبني له بيتًا، وأن ينظف الأرض من العشب والحجارة ويزرعها وأن يستخرج كميات من القطران أو الصمغ من الأشجار المحيطة بالمنطقة، وأن يدفع الضرائب والجعالات خلال سنتين، والاتفاقية المطبوعة تنص أيضًا على ما يلي: " أما الأطفال الذين يبلغون من العمر ثماني سنين فما فوق، فيجب الاستفادة منهم باستخدامهم في جمع الأحطاب لغلي القطران والصمغ".

لكن أحدًا من الحضور لا يقدم أرضًا لصبي في الثالثة عشرة من عمره .. وفي كل يوم تقلع القوارب تحمل الأسر التي ستقيم في منطقة الهدسون العليا ..

وفي كل يوم يودع بيتر صديقًا من أصدقائه الذين يغادرون الجزيرة إلي مقرهم الجديد..

وانقضى شهر آب وأقبل شهر أيلول والصبي لا يزال في الجزيرة يقيم في كوخ معد لتخزين الأحطاب، وهو يرتعش من البرد .. وما أن حل منتصف شهر تشرين الأول حتى لم يبق من أكواخ الجزيرة المهجورة سوى كوخين أو ثلاثة أكواخ، يقطنها بعض الأرامل واليتامى.

وذهب بيتر برفقة غيره من الصبية إلى الكوخ الرئيس في الجزيرة ليقابلوا ممثل الحاكم كعادهم، وكان المستر كلارك يجلس إلى الخوان يجمع

الأوراق التي تكدست أمامه.. ، واحتشدوا في الكوخ وكان بيتر أقربهم إلى ممثل الحاكم، فألقى هذا نظرة فاحصة، وأخذ ينقر الخوان بأصابعه، ويخاطب نفسه قائلًا: ما الذي تفعله بهؤلاء الصغار؟..

ثم نهض ووضع ملف الأوراق تحت إبطه، وتطلع إلى بيتر وقال له: أتريد أن تتعلم مهنة أيها الصبي؟..

فأجابه بيتر بصوت عالٍ: بلى.. ولكن من الذي سيدفع أجرة تعليمي؟..

فعبس المستر كلارك وقال: هذه هي المشكلة..

ثم خاطب نفسه قائلًا: سأتحدث إلى الحاكم بهذا الشأن، فالنساء المتخلفات يعملن في خدمة البيوت والحانات، والحوانيت.. أما الصبية فسندبر أمرهم.. وابتعد بخطى ثقيلة صوب القارب الذي ينتظره.

وبعد أسبوع، وفي صباح يوم شديد البرودة، وقف بيتر خلف قواطع أخشاب الوقود، فشاهد من خلالها شابًا خشن المنظر، يرتدي معطفًا دافئًا، يسير بخطى ثابتة بين الأكواخ.. فعرف بيتر فيه ابن صاحب المطبعة التي زارها مع أخيه في نيويورك، فهرع لاستقباله والترحيب به قائلًا: عم صباحًا يا مستر برادفورد!..

ابتسم الشاب قليلًا وقال: أتعرف اسمي أيها الصغير؟.. والآن هلّا أرشدتني إلى أقوي صبي في هذه الجزيرة، ولك بنس أجرة!..

فأجابه بيتر: بوسعك يا سيدي أن تحتفظ بالبنس، لأنك قد عثرت على الصبي الذي تريده.

فوضع المستر برادفورد البنس في جيبه، وسأله على الفور: وأين هي أمك أيها الصبي؟..

واستدعى بيتر أمه إلى خارج الكوخ، لعلمه أنه لا يجوز لسيد نبيل مثل مستر برادفورد أن يدخل كوخ أمه الحقير.

ولما صارت أمامه قال لها: أتوافقين على أن يعمل ابنك عند أبي طباع الملك؟..

فلفت المرأة كتفيها بمنديلها الممزق وتساءلت بشيء من العصبية والذهول: ماذا؟.. طباع الملك؟..

لقد خيل لها أن الشاب يسألها فيما إذا كانت توافق لأن يصبح ابنها أميرًا.. فتلفتت نحو بيتر تستطلع رأيه فرأته يهوم برأسه إيجابًا حتى كاد شعر رأسه يدخل في عينيه.. ، فقالت المرأة متلعثمة: أجل .. أوافق. نعم .. طبعًا ... ولكن؟.. إذن فلنذهب معًا للتوقيع على الاتفاقية وسار السيد برادفورد في المقدمة .. وتبعه بيتر فاغرًا فاه من شدة الانفعال، وهو يحرك قبعته المحاكة من الصوف أماماً وخلفاً، ثم خلفاً وأماماً، إلى أن قال: وهل أعفى من ضريبة التعليم؟..

فأجابه الشاب: أجل لقد أقنع الحاكم هنتر المجلس بضرورة تعليم أيتام البالاتينيين على نفقة الحكومة فهيا بنا الآن..

وتساءل الصبي دهشًا: الحكومة تدفع نفقات تعليمنا؟.. من هي هذه الحكومة؟.. مرحى ثلاثاً لها!.. وكل ما أرجوه أن أعثر دائمًا على أصدقاء من أمثالها!..

الفصل الرابع

بيتر يتعلم مهنة الطباعة

أخذ بيتر يحب هذا المكان الجديد الذي ارتبط به، هذا المكان الدائم الحركة، القوي الرائحة، غير أنه لم يلمس بعد الأخطار الكامنة فيه ... ، وسرعان ما لاحظ أن معلمه يبدو أحياناً، حتى في الصباح الباكر، منقبض النفس، تعبًا.. لكنه لم يعر ذلك اهتماماً لأن عنده ما يغريه في هذه المهنة الحبيبة الجديدة.

فبيت المستر برادفورد، هو بيت هولندي قديم أقيم منذ أن كانت نيويورك تسمى نيوأمستردام.. ، وكان بيتر يشاهد من باب هذا البيت السوق القديمة القائمة على الرصيف، وصواري السفن، وتعبق في خياشيمه رائحة الهواء المشبع بالملح، والحبال المطلية بالقطران.

فإذا ما ولج الباب الأمامي، الذي تتأرجح فوقه شارة الكتاب المقدس، اتجه إلى غرفة الطباعة حيث نصبت آلتان للضغط.. ، وكل آلة منهما مصنوعة من الخشب السميك، يتصل طرفاها بعوارض خشبية غليظة تلتصق بالسقف.. كما نصبت في الغرفة أسلاك معدنية تنشر عليها طلحيات الورق المطبوع، لتجف كما يجف الغسيل.. وقد أناط المستر أندرو برادفورد ببيتر مهمة جمع هذه الطلحيات، بعد تجفيفها وتوضيبها

بدقة وسرعة لتستقبل الأسلاك عددًا آخر من الطلحيات التي تدفعها الآلتان باستمرار.

فكيفما سار بيتر في الغرفة يعثر على أكوام من الورق المطبوع، في الزوايا وعلى الأرض، وفوق الطاولات والرفوف.

والأمر الذي كان يثير دهشته إلى تلك الكتب الكثيرة المعروضة للبيع التي يتلقاها معلمه من إنكلترا، وفرنسا، وهولندا.. ، وكم كان سروره عظيمًا حين شاهد على الرف عدداً من الكتب التي أخرجتها مطبعة مستر برادفورد ذاتها.. ولما أطلعه معلمه على حجرة مليئة بمثل هذه الكتب، ارتفع صدر بيتر تفاخراً واعتزازاً.

وإذا كان الصبي يسير متقهقراً أثناء عمله، تعثر بكومة من الورق الأبيض، وسقط من فوق قنطرة في الركن الذي توضب فيه الحروف، ولما حاول مستر أندرو قذفه بالمفتاح عقاباً، استدار بيتر على نفسه متحاشياً الضربة فمس كتفه صندوق الحروف وقلب المثلث من القطع المعدنية الدقيقة على رأسه.

وقضي ثلاث ساعات في جمع هذه الحروف، فتعلم كيف نضدت، وكيف قسمت إلى مجموعات، كل مجموعة منها تختص بشكل معين، وكانت الرفوف السفلى من الصندوق مليئة بالحروف المشابهة لحروف الرف الأعلى الذي سقط على رأسه.

كان المستر برادفورد الأب يعمل في هذه الغرفة طوال النهار، بعد أن رحل ابنه الكبير أندرو إلى فيلادلفيا، يساعده في ذلك ابنه الصغير ويليام وهو صبي ممتقع اللون، تعب، في التاسعة عشرة من عمره، كما كانت السيدة برادفورد تلطخ يديها وهي ترتب الأوراق المطبوعة حديثاً مع أن عملها في المطبعة محصور في مسك الدفاتر.

وأدرك بيتر بعد حين أنه في الواقع أحد أعضاء هذه الأسرة، يأكل معها على مائدة واحدة، ويتلو صلاته معها أيضاً، ويطيع مستر برادفورد وقرينته، وإذا ما عصى لهما أمراً وبخاه وضرباه، فكانا له بمثابة أبٍ وأمٍ، نشأ على حبهما، كما تعلقا هما به وأحباه.. وكانت مسز برادفورد تتفقد سريره كل ليلة وتدثره باللحاف جيداً، وتطبع قبلات على وجنتيه، فتجعله يشعر أنه إنما ينتمي إلى هذه الأسرة، وأنه أحد أبنائها.

أما العمل الذي كان يمقته فهو غسل الصحون كل مساء في برميلين صغيرين يوضعان إلى جانب موقد البيت مباشرة.

وجلس بيتر القرفصاء ذات ليلة يغسل الصحون، وهو يرتدي سروالاً مخططاً باللونين الأبيض والأزرق، ويرتدي صدارة غير مبكلة، وكان يثرثر مع السيدة برادفورد وهي تخيط الثياب على ضوء شمعة تثبت فوق ظهر كرسيها وشعرها مشدود إلى خلف رأسها وفمها ضامر، فبدت وكأنها تكبر أم بيتر سناً.

وسألها الصبي: أكان يقيم معلمي في نيويورك دائماً؟..

فأجابته وهي تمسك طرف ثوبها الرمادي: كلا، فالمستر برادفورد ولد في إنكلترا، وينحدر من أبوين متواضعين ينتميان إلى الكنيسة الانكليزية.. ، فلما كان صبياً تعلم مهنة الطباعة عند أبي، كما هي حالتك أنت اليوم معه.. ، وكانت أسرتي منضمة إلى "جماعة الأصدقاء" أو "الكواكرز"، وكان مستر برادفورد يحضر اجتماعاتنا هذه.. ولما بلغ سن الشباب طلب يدي، وتكللنا ثم أبحرنا معاً عبر المحيط العظيم لنشق طريقنا في هذه الدنيا.. ، فعمل خلال ثماني سنوات كطابع في فيلادلفيا، لكنّا.. وهنا توقفت مسز برادفورد قليلًا لتجلي حلقها... بعد متاعب قليلة صادفناها في هذه المدينة، انتقلنا إلى نيويورك وكان ذلك سنة **1693**م، أي قبل أربع سنوات من مولدك أنت يا بيتر.

فسألها بيتر بسذاجة: وما هي المتاعب التي اعترضت سبيلكما يا سيدتي؟..

فاهتزت السيدة برادفورد وقالت له: ألم تنته من غسل الصحون بعد.. إنك صبي كسول بطبعك!. إنك لن تصبح غنياً أبداً، إنني متأكدة من ذلك!..

التزم بيتر الصمت قليلاً، لكنه كان في شوق لمعرفة المتاعب التي صادفت معلمه، إنها ولا شك سر من أسرار مستر برادفورد، وبيتر يحس في قرارة نفسه أن لتلك المتاعب أهمية خاصة.. ، وأن لها صلة بمهنة الطباعة التي اختارها لنفسه، فالاطلاع على تلك المتاعب يفيده هو

أيضاً.. وأرجأ هذا السؤال إلى حين، لكنه عاد وخاطب مسز برادفورد قائلاً: لقد كنت أجهل أن معلمي كان كواكرياً..

فأجابته متضجرة: كلا.. فمستر برادفورد منذ أن حل في نيويورك وهو من أتباع "كنيسة ترينتي" وهي كنيسة إنكلترا.. ثم أضافت بشيء من الرضى: وانقضت سبع سنين وهو أحد أعضاء عمدة الكنيسة.. ألا تنتهي من غسل الصحون؟..

وينطلق بيتر يوم الأحد من بيت مستر برادفورد، كما ينطلق المهر في المرعى، ويذهب إلى حانوت النجار الذي يعمل فيه أخوه جون.. ثم يسيران معاً في الشوارع الموحلة، حتى يبلغان بيتاً أنيقاً يقع في شارع براود، ويقرعان بابه بلطف، فتخرج له أمهما وأختهما الصغيرة، فترحبان بها أجمل ترحيب.. فأمهما تعمل مربية في هذا البيت الثري، وتقضي معظم أوقاتها في خياطة ثياب أطفال البيت، وابنتها الصغيرة "كاتي" تمد لها يد المعونة.

وتخرج أسرة زينجر كلها إلى الغابة الواقعة في منطقة المشاع، وهناك يأخذ جون في اللعب مقلداً الهنود الحمر، فيتسلق الأشجار ويصرخ عالياً داعياً إلى الحرب والقتال.. ، أما بيتر فيأخذ في جمع أغصان الأشجار ويصنع منها كوخاً، لكنه يقضي معظم وقته في الممازحة، ويضحك الأسرة بالأغاني الفكهة التي يؤلفها ولا ينتهي من صنع الكوخ أبداً.

كان القانون يوجب على كل صاحب مهنة أن يعلم أجراءه القراءة والكتابة والحساب، وأخذ مستر برادفورد يعلم بيتر بذاته، وإذ تعذر عليه ذلك بسبب كثرة أعماله أرسله إلى المدرسة الليلية.. وكان على بيتر أن يعمل في المطبعة نهاراً ليغطي نفقات مأكله وملبسه، ومعلمه يوبخه دائماً إذا ما رآه يتوانى أو يتراخى.

والمدرسة الليلية هي غرفة واحدة تسمى المدرسة الأجرومية الحرة لصاحبها أندرو كلارك.. ، ففيها كان يجلس بيتر إلى جانب شقيقه جون، وفيها كان الأولاد والرجال ينكبون على كتبهم، يستضيئون بنور شمعة ترسل الضوء الخافت والدخان معاً.. وبيتر لا ينفك يبذل مجهوداً شاقاً ليتعلم ويرضي معلمه، وليحقق الهدف الذي يرمي إليه وهو أن يصبح طباعاً أيضاً.. ، غير أنه كان في الوقت ذاته لا ينفك عن الغناء وإطلاق الفكاهات.

وما أن أصبح قادراً على فهم معاني الكلمات الإنكليزية المطبوعة، حتى تضاعفت فيه روح السخرية.. فكتاب القراءة طافح بالقصائد القصيرة الخاصة بالقطط والكلاب، والقرود، والحمير، فاستغوته هذه القصائد، وصار يؤلف قصائد هزلية تثير ضحك أخيه، وتحمل أستاذه لأن يصفعه أو يقرعه بالعصا.

وانتهت المدرسة الليلية بعد ثلاثة أشهر.. فقدم له مستر برادفورد كتابين ليتابع درسه فيهما، أولهما هو "كتاب القراءة الجديدة أو التوجيه

الأسلوبي لمعرفة النطق باللغة الإنجليزية وقراءتها وكتابتها" وثانيهما هو "دليل الأمانة" وكلاهما مطبوع في مطبعة مستر برادفورد.

وجذب بيتر كرسيه إلى جانب الشمعة قريباً، وقلب بضع صفحات من هذين الكتابين، وعلق عليهما بخيبة أمل قائلاً: "ما الفائدة من كتب التهجئة هذه؟" لقد تحقق بيتر فجأة أن حياة الأجير الطباع هي حياة عمل ودرس فقط، أما حظه من اللعب فضئيل جداً.

فقطب مستر برادفورد وجهه ومال نحو بيتر وقال له: انظر إلى هذه الرسائل التي تلقيتها من الزبائن هذا اليوم.. ،انظر كيف يتهجأون الكلمات .. فرجل يكتب كلمة "قبعة" على هذا النحو **Hat** وغيره يكتبها هكذا **Hatt**.. ورجل يكتب كلمة "الأول" على هذا النحو **First** وغيره يكتبها هكذا **Ffirst**، ورجل يكتب كلمة "محاكمة" على هذا النحو **Trial**، وغيره يكتبها **Tryal**، وثالث يكتبها **Tryale**.. ورجل يكتب كلمة "ملف" على هذا النحو **File** وغيره يكتبها **Fyle**، ورجل يكتب كلمة "قطعة" على هذا النحو **Morsel** وغيره يكتبها **Morcell**.. فنحن الطباعون يا بني نعمل على وضع الأمور في نصابها، ونحرر اللغة الإنكليزية من التخبط والفوضى.. ، فعليك أن تقسو على نفسك في التعلم، وأن تجيد لفظ الكلمات، وتطبعها طبعاً صحيحاً، وهكذا يتعلم القرّاء اللفظ الصحيح أيضاً، وهذه مهمة عظمى نقوم بها.

فتأوه بيتر.. ولسان حاله يقول: التهجئة!.. ألا يكون لي من عمل آخر أقدمه للناس عندما أصير طباعاً سوى التهجئة الصحيحة؟!..

الفصل الخامس

بيتر الطبّاع المقدام

وصل بيتر زينجر إلى نيويورك سنة **1710** م وقضى في تعلم صنعة الطباعة ثماني سنوات، ولما بلغ الحادية والعشرين انتقل إلى ماريلاند لينشئ فيها حانوت طباعة يتعيش منه.

وبعد ثلاث سنين عاد إلى نيويورك، وقد أنفق المال القليل الذي ادخره، وطرق باب مستر برادفورد يسأله متواضعاً أن يقبله في محله ثانية.. ، فبسط مستر برادفورد يديه، وقال إنه يجد صعوبة في دفع أجر العامل الذي يساعده في عمله، ومع ذلك فإنه يحس بحاجة ماسة إلى بيتر فضمه إلى المطبعة.

وتنقضي ثلاث سنين أخرى فيتزوج بيتر الآنسة كاترين مولين، وهي فتاة هولندية فقيرة الحال، فأقام معها في بادئ الأمر في بيت صغير، تشاركهما العيش فيه أمها وأختاها المرحتان فكانت حديقة البيت تعج كل مساء بالجيران، وقد عجز بيتر عن دفع أجرة مسكنه في السنة الأولى، لكنه كان يشعر بالهناء والسعادة إلى جانب زوجته الشابة وأسرتها الطيبة.

وجاء إلى المطبعة في عصر يوم قارٍ زائرٍ مزعج اسمه بنيامين فرانكلين.. له من العمر سبعة عشر عاماً، يرتدي رداء يدل على فقر حاله، ورغيف الخبز يطل برأسه من جيبه.. ، وأعلن هذا الزائر أنه يحسن الطباعة، وأنه مؤلف كتاب، ويرجو مستر برادفورد قبوله في خدمته.

ذكر هذا الشاب أن أخاه الأكبر يصدر صحيفة في بوسطن، لكن السلطة زجّت به في السجن، لنشره مقالاً ينتقد فيه المجلس التشريعي، فرأى بنيامين أن الحكمة تدعوه لأن يرحل إلى نيويورك.

فلما سمع مستر برادفورد هذه الأنباء جلس على كرسيه، جاحظ العينين كأنه يرى شبحاً.

وتابع فرانكلين حديثه قائلاً: وعلي أن أقدم امتناني لابنكم مستر أندرو الصحفي المقيم في فيلادلفيا، لما أظهره من تأييد قوي، فقد كتب في صحيفته يصف سلطات ماساشوستي بالغطرسة، والتذبذب، والاستبداد، وهو..

فقاطعه مستر برادفورد بقوله: ولكن.. ألا ترى أنني استخدم عاملاً في مطبعتي هذه؟.. وأشار إلى زينجر.. وفي رأيي أنك تستطيع العمل مع ابني أندرو في فيلادلفيا، لأن الموت اختطف مساعده الأول.. فغادر فرانكلين نيويورك حزيناً.

وفي يوم الأحد التالي ذهب زينجر وزوجته إلى كنيسة الإصلاح الهولندية كعادهما.. ، وكان يعمل فيها كنافخ في الأرغن براتب سنوي

قدره اثنا عشر جنيهاً.. ويتطلب هذه العمل منه أن يحرك المنفاخ باستمرار، فيتسرب الهواء إلى الأرغن في حين يجلس العازف إليه ويداعب مفاتيحه بأصابعه.

أجل، كان يذهب بيتر إلى هذه الكنيسة كل يوم أحد، مصطحباً زوجته كاترين زينجر فخوراً بها، وهي امرأة دمثة الأخلاق، تقص شعرها الأشقر وتغطيه بقبعة هولندية بيضاء، فتتدلى بضع خصلات منه على جبينها، في حين ترتدي الثوب القرميدي اللون، والمشد يطوق خصرها، وكتاب المزامير يتأرجح من سلسلة قيدت إلى ذراعها الأيسر.

ومسز زينجر تحب كنيستها، وكثيراً ما قالت لزميلاتها المصليات: وإنه لمن المؤسف حقاً أن نرى الأولاد ينامون أثناء الصلاة، ولا يتعلمون شيئاً من أصول الدين، فعلينا أن نعد لهم دروساً خاصة، يلقنون فيها القصص الواردة في الكتب المقدسة.

ولاقت هذه الفكرة استحساناً بالتدرج، وصار بعض الآباء يرسلون أطفالهم إلى مسز زينجر لتعلمهم أصول الدين في الكنيسة في عصر أيام الآحاد.. ، وأخذت هي تعتمد في هذا العمل على سيدتين أو ثلاث سيدات، وهكذا تم إنشاء أول مدرسة للأحد، ومن ثم اقتبست الكنائس المسيحية هذه الفكرة وطبقتها في بلادها، وعرفت فيما بعد بمدارس الأحد.

وكان لكاترين شقيقة جميلة اسمها أورسولا مولين، سرعان ما اقترنت بصانع العربات نيكول سيجن، وكان يملك مشغلاً كبيراً يصنع فيه العربات ذوات العجلتين التي تنقل البضائع والأحمال، ونفايات اللحوم عبر شوارع المدينة.. ، كان قانون المدينة يحدد عربات النقل هذه بمائة عربة، ويفرض على السواقين أن يسيروا على الأقدام لا راكبين.

لم يكن زينجر لينفق بنساً واحداً، وإنما يضع كل ما يتناوله من أجر في يدي زوجته النشيطة، وكانت هي تحسن الإنفاق.. ولم تنقض مدة من الزمن حتى وفروا مبلغاً من المال، أفادهما في الإنفاق على ولديهما "جون" و "بيتر" المشابهين لاسمي بيتر وأخيه جون.

وأخذ الناس وقتئذ يتحدثون عن خلاف دب في الكنيسة الهولندية، في مدينة راريتان من ولاية نيوجيرسي، فالسكان هناك يتضجرون من قسيسهم، وانبرى أربعة منهم في اجتماع الأبرشية يتهمون القس ببث التعاليم الكاذبة.

ولم يتساهل القس مع هؤلاء الأربعة فحرمهم من الكنيسة، ومنعهم من عبادة الله في أية كنيسة هولندية، وكانت هذه الصفعة شديدة الوطأة على جماعة شديدة التمسك بدينها.. ، وانتشرت الفضيحة في نيوجيرسي ونيويورك كافة، إلا أن معظم الناس كانوا يجهلون السبب الحقيقي لهذا الخصام.

عاد بيتر ذات مساء من عمله فسلمته زوجته مخطوطة سميكة كتبت باللغة الهولندية، وقالت له باهتمام: "انظر إلى هذه المخطوطة.. لقد طلب أصحابها منا أن نطالعها، وأن نراجع مستر برادفورد بصدد طباعتها".

وطالع بيتر المخطوطة في ذلك المساء، فاتضح له أن مؤلفيها هم أبناء الأبرشية الأربعة الذين حرمهم قس الكنيسة، وقد بينوا فيها وجهات نظرهم، وما يعتقدون بصحته، والسبب الذي حملهم على اتهام القس ببث التعاليم الدينية الكاذبة.

لقد حركت هذه المخطوطة بيتر وخاطب نفسه قائلًا: سيسر الناس ولا ريب بهذا الكتاب، وسيقررون بأنفسهم من هو المتدين الحق، أهؤلاء الأربعة أم قس نيوجيرسي الجديد.

وأطلع بيتر مستر برادفورد في اليوم التالي على هذه المخطوطة، فهز الطباع رأسه وقال: لقد سبق لي يا بني أن طبعت الكثير من بيانات أبناء الأبرشية التي يصدرونها ضد بعضهم بعضاً، لكن هذه المخطوطة تختلف كثيراً عما كنت أطبعه، فهؤلاء الأربعة يهاجمون قسهم الذي نصبته الرئاسة العليا، وأراني غير راغب بأن تكون لي علاقة بهذه الفضيحة.

فسأله بيتر بإلحاح: وما هو الضرر الذي يتأتى عن نشر هذا الكتاب؟..

فأجابه مستر برادفورد محذراً: إنني في هذه الأمور خبير.. ويجدر بالطباع ألا يهاجم السلطات.

قال بيتر: أكانت المتاعب التي صادفتك في فيلادلفيا قبل أن أخلق، من هذا القبيل؟..

رفع مستر برادفورد رأسه وتمتم قائلاً: لا بأس في الأمر.. وتحول عن بيتر.

وامتلكت بيتر رغبة ملحة لمعرفة تلك المتاعب القديمة، وقد أحس أنها كانت على جانب كبير من الأهمية، فعليه والحالة هذه أن يطلع عليها، ليتحاشى أية متاعب شبيهة بها ربما تعترض سبيله في المستقبل.

وعاد في المساء إلى بيته ليجد شقيقة زوجته وقرينها، وعدداً من الجيران، وأربعة رجال غرباء ينتظرون قدومه.. ، وما أن سمعت كاترين صوته حتى هرعت إليه، وقدمت له الضيوف الأربعة واضعي الكتاب.

كان الرجال من التجار والمزارعين الوقورين.. ولكن حرمانهم من الكنيسة قد أثر في نفوسهم كثيراً، وقد بدت وجوههم شاحبة تفيض بالغم والأسى.

وأنبأهم بيتر بشيء من الحيرة رفض مستر برادفورد طبع الكتاب.. ، فتأوهوا وراحوا يهزون رؤوسهم من اليأس.

لكن كاترين ضمت قبضتيها وقالت منفعلة: أصغ يا بيتر زينجر.. قل لبرادفورد الشيخ غداً أنه ملزم بطبع الكتاب!.. إنني لازلت أجهل مَن مِن الطرفين يقول الحق.. أهو القس أم هؤلاء السادة الأربعة، وكيف يستطيع الناس مناقشة الموضوع إذا لم يطبع الكتاب؟..

لقد أثارت جرأة كاترين إعجاب زوجها، وأضف على وجهها مسحة من الجمال العميق لا عهد له بها سابقا.. فأجابها موضحاً: لكن مستر برادفورد لا يود إزعاج السلطات.

وما أن سمع الرجال المحرومين هذا الكلام، وهو شيخ هولندي حزين الوجه، حتى قال لكاترين: إننا لا نريد جلب المتاعب لك وللمستر زينجر.. ثم تطلع إلى بيتر وقال: إن كل ما نرجوه هو أن نرى كتابنا مطبوعاً.

أطرقت كاترين لحظة ثم التفتت إلى زوجها وقالت: إننا ندخر القليل من المال، وسرنا أن نبتاع ببعضه الورق اللازم لطبع الكتاب، وما على مستر برادفورد إلا أن يسمح لك باستعمال أحرفه ومطبعته.

وعرض بيتر هذه الفكرة على مستر برادفورد في صباح اليوم التالي، فضيق الطباع عينيه حتى أصبحتا كعيني الثعلب وقال: أأفهم من كلامك هذا أنك تود أن تكون لي شريكاً؟..

فأجابه بيتر متردداً: إنني لا أرى غير هذا السبيل لطبع الكتاب..

قال: فأنت إذن ستبتاع الورق وتنجز العمل، وأنا أقدم المطبعة والأحرف، والحبر، وغيره، ثم نتقاسم الأرباح؟..

فتردد بيتر ثانية في الإجابة مفترضاً ألا يؤتي هذا الكتاب ربحاً، وهو يقوم بأول مغامرة في عمله، ويقدم على أول معركة من أجل حرية النشر، التي تتيح للناس بث أفكارهم حتى ولو كانت مضادة للسلطات القائمة.. ، وفكر قليلاً ثم قال: نعم.. إن ما ذكرته هو الواقع!.. فمد له مستر برادفورد يده وتصافحا بحرارة.

وفي صباح اليوم التالي أفرغت كاترين وبيتر صندوق الادخار الصغير وأمارات الاهتمام الزائد بادية على وجهيهما.. ، وانصرف بيتر إلى طبع الكتاب خلال أشهر عديدة، والشيخ برادفورد مقتنع بأن هذا الكتاب سينتشر بين الناس، وسيدر عليه ربحاً، وإذا ما صادف معارضة فإنه سيضع اللوم على شريكه وحده.

لقد صح حدس الشيخ.. فما أن ظهر الكتاب حتى نفدت نسخه كلها..، وجاء قس نيوجيرسي مسرعًا إلى نيويورك مجتازًا النهر تحت وابل من المطر، وقرع باب دار زينجر بشدة وثار في وجهه مدة نصف ساعة قائلاً له: لقد وضعت يا مستر زينجر عصاك في جحر الزنابير!.. ، فثلاثة أرباع أفراد الأبرشية يطالعون كتابك ويرسلون نسخاً عنه إلى السلطات في هولندا.. ، لقد دعوت إلى اجتماع يوم السبت فتعال بذاتك لترى الجماهير وهي في حالة هياج وعمل!..

غير أن القس اتبع سياسة الحكمة فلم يعقد الاجتماع يوم السبت، وإنما أعاد المحرومين الأربعة إلى حظيرة الكنيسة، ووعظ الناس يوم الأحد داعياً إياهم إلى ضرورة التآخي ونبذ المشاحنات.

وقلب بيتر بزهو الكتاب واسمه "كلاجت" وقد طبعت في أسفله هذه العبارة "نيويورك، طبعه ويليام برادفورد وبيتر زينجر سنة **1725**".

وكان هذا الكتاب في نظر بيتر أفضل من مجرد تعليم الناس أصول التهجئة الصحيحة.

الفصل السادس

الصحافة وأخطارها

تقدم صبيان إلى مستر برادفورد يسألانه السماح لهم بتعلم صنعة الطباعة عنده، لكنه لم يقبلهما في المطبعة بسبب قلة العمل.. وراح يسير ذهاباً وإياباً عند باب حانوته.

وقال لبيتر ذات يوم: لقد أسفت لرفضي ذلك الشابين.. فملامحهما تقول بأنهما عاملان جيدان، وأن أبويهما سيدفعان جعالة التعليم بانتظام.. ولكن العمل يسير بطيئاً في هذه المطبعة.

فانتفض بيتر وقال: لماذا لا تصدر صحيفة في نيويورك مشابهة بالصحيفة التي يصدرها ابنك في فيلادلفيا؟..

فألقى مستر برادفورد نظرة عجلى على بيتر وقال: لقد راودتني هذه الفكرة منذ أمد بعيد..

غير أن بيتر لم يترك قولاً مغرياً إلا لجأ إليه، لإقناع الناشر القديم بضرورة إصدار صحيفة في نيويورك.

وفي اليوم التالي توجه مستر برادفورد إلى القلعة الداكنة ليطلب مقابلة الحاكم بورنيت.. ، فهو بوصفه طباع الملك يتقاضى من الحكومة

خمسين جنيهاً سنوياً، ولهذا فإنه يحس في قرارة نفسه أنه ملزم باستشارة الحاكم بصدد مشروعه الجديد.

وبعد أسبوع صارت الصحيفة حديث الناس، وأول ما فعله مستر برادفورد قبول الشابين في المطبعة.

وزاره في صباح يوم عاصف ممطر من شهر تشرين الأول السيد لويس موريس، ابن رئيس قضاة المجلس الأعلى، وهو شاب له من العمر سبع وعشرون سنة، وعضو في مجلس صاحب الجلالة يجيز القوانين، ويناقش المسائل المعقدة التي تواجه المستعمرة.. وكان لهذا الشاب وجه ممتقع رقيق، لكنه يشع بالذكاء والنشاط.

وراح يحدث الناشر بحماسة قائلاً: لقد بلغني يا مستر برادفورد أنكم مزمعون على إصدار صحيفة، إنها لفكرة بديعة حقاً ومن العار على مدينة يبلغ تعداد سكانها ستة آلاف نفسٍ ألا تصدر صحيفة تكون بمثابة لسان حال لها.

فأجابه مستر برادفورد مبتسماً: إنه ليسرني تأييدكم هذا يا سيدي.

وأخرج الشاب السياسي ورقة مطولة من جيبه، وأمسكها بيده العاجية، وتابع كلامه الحماسي قائلاً:

أرجو أن تكون نيتك منصرفة إلى جعل صحيفتك في المستوى اللائق بها، وإلا فلا موجب لإصدارها بالمرة.

فمط الطباع شفتيه لهذه المفاجأة محاولاً إخفاء تضجره من هذا التوجيه.

وتابع الشاب حديثه: ويجدر بك يا مستر برادفورد أن تصدر العدد الأول بافتتاحية تعالج موضوعاً يثير اهتمام الناس.. ، فإليك هذا المقال لقد تلوته بالأمس في مجلس صاحب الجلالة، ونال تأييد السيد ألكسندر، أما القاضي هاريسون فكان معارضاً له، فليتك شاهدتهما وهما في ثورة من النقاش عبر الطاولة!..

فسأله بيتر بجرأة: هل لي أن أستوضح الموضوع الذي يعالجه المقال يا سيدي؟..

قال الشاب: إنه يدعو إلى ضرورة فرض الضرائب على جميع البضائع الأجنبية التي تحملها البواخر إلى ميناء نيويورك.. ، وبهذا التدبير نستطيع وضع حد ل "بواخر برمودا" فلا تقضي على صناعاتنا المحلية..

وصاح الفتى موريس بصوت متهدج: إذا لم تتخذ الحكومة هذا التدبير فستهلك نيويورك خلال عشر سنوات.. اذكروا كلامي هذا دائماً!..

ونهض الفتى على قدميه، وهز يده اليمنى ليضاعف من قوة حجته، وما كاد يتكلم من جديد حتى وقع نظره على باب المطبعة يفتح، ويتخطاه رجل يحمل عصا مذهبة الرأس.. إنه القاضي فرنسيس

هاريسون، وهو الرجل الوحيد في نيويورك الذي يرتدي قميصاً مطرز الكمين.. وراح القاضي يتفقد المكان بعينيه الكستنائيتين.

وفي هذه الأثناء مد الفتى موريس يده مودعاً مستر برادفورد وقال: علي أن أذهب.. وعليكم أن تأخذوا بنصيحتي، إذا أردتم النجاح لصحيفتكم.. وحيا بيتر.. ثم قال للزائر الجديد بلهجة جافة: "عم صباحاً يا سيدي!" وترك المطبعة.

لم يشعر بيتر برغبة لسماع حديث القاضي فرنسيس هاريسون، وأخذ يتابع عمله عند الآلة الطابعة.. أما القاضي، فهو مثل الفتى موريس، أحد أعضاء مجلس الملك الاثني عشر، ويشغل مناصب عديدة.. فكان رئيس شرطة، ورئيس مفتشي الجمارك، وهو الآن قاضٍ في محكمة أميرالية البحر، وقد تطلبت منه وظيفته هذه أن يشنق عدداً من المهربين، ولما بلغ الأربعين عُين مسجلاً (أي كبير قضاة محكمة الجنايات في المدينة)، ولم يكن ثرياً، والراتب الذي يتقاضاه زهيد، لكنه ينفقه كله تقريباً في خياطة الثياب الأنيقة.

ولقلق لسانه بخفة قائلاً: يشاع أنكم عازمون على إصدار صحيفة تتضمن مواد تزعج صاحب السعادة الحاكم.

دهش مستر برادفورد لهذه المفاجأة، وألقى نظرة على مقال الفتى موريس، وكان لا يزال في يده، فطواه على عجل ودفعه إلى جيبه، وقال:

يلوح لي يا سيدي أن الشائعات تنتشر بسرعة في هذه المدينة.. ، فقد نقلت إليك بأنني سأطبع مواد لم أتحقق أنا نفسي منها بعد!..

فقطب القاضي وجهه من الغيظ لكن الابتسامة لم تفارق ثغره، وقال: إنه ليسرني أن أمد لكم يد المعونة، ولعلكم لا تجدون مانعاً من إطلاعي على تلك الورقة التي غابت في جيبكم الآن.. ومد يده لأخذها.

وتردد مستر برادفورد في تسليمه إياها.. فقال له القاضي بلهجة الساخط: لقد أقدمت أنت وشريكك على طبع كتاب باللغة الهولندية أقلق بال السلطات، وأظن أنكم لا تريدون ضياع اللقب الذي تحملونه، وهو "طباع الملك" كما أنكم لا تودون فقدان المبلغ الذي تتقاضونه سنوياً.. أليس كذلك؟..

فابيض وجه مستر برادفورد من ثورة الغضب، غير أنه أخرج الورقة هادئاً من جيبه وسلمه إياها.

ووضع القاضي عصاه المذهبة الرأس تحت إبطه، وابتسم راضياً لهذا التسليم، وأمسك الورقة غير مكترث بأطراف أنامله، وألقى عليها نظرة، ثم وضعها على الطاولة الخاصة بالمكتب.. وقال: هذا ما كنت أتوقعه، إنه مقال يتضمن هجماً شنيعاً على سياسة الحاكم الملكية.. ، فإذا عمدتم إلى طبعه ستكونون كمن يسعى إلى حتفه بظلفه.. وغادر المكان دون أن ينبس بكلمة أخرى.

وما أن ابتعد حتى قال مستر برادفورد لبيتر بحدة: لقد حاول هذا اللعين إخافتي قبل أن أصدر الصحيفة.. حسناً، إنني أقبل التحدي، وسيصدر العدد الأول يوم الإثنين المقبل!..

فرحب بيتر بذلك وقال: وسنطبع مقال مستر موريس في الصفحة الأولى؟.

فأجابه برادفورد: ونذهب إلى السجن معاً: كلا يا بيتر إنني رجل في الثالثة والستين من عمري، وعلي أن أعيش مرتاح البال في هذا العالم.

قال بيتر: ولكن ربما كان موريس على حق في قوله أن نيويورك ستهلك من الجوع بعد عشر سنين.. ، وأية عدالة تقضي بأن يراقب أحد أعضاء المجلس مقال عضو آخر فيه؟..

فهز برادفورد رأسه وقال: دعهم يقررون المسألة فيما بينهم، وإذا ما اتفقوا على رأي فسأنشره لهم، وصحيفتي لن تحمل نقدًا للحاكم أبدًا، لقد أصيب بيتر بشيء من الذهول لسماعه هذا الرد وراح يتابع عمله عند الآلة الطابعة حزينًا، وتراءت له الصحيفة تصدر جافة ميتة لا تشبه صحيفة ابنه أندرو برادفورد الصادرة في فيلادلفيا، والتي تنبض بالحياة.

وقال بيتر: يتراءى لي أنكم اختبرتم هذا الأمر في ماضيكم وأنكم لا تريدون التعرض للمتاعب التي تعرضتم لها في فيلادلفيا منذ أمد طويل! ، عقد برادفورد حاجبيه وقد أخذه العجب من بيتر هذا الذي يعرف عنه الشيء الكثير، وانتظر بيتر ردًا على كلامه إلا أن الشيخ آثر الصمت،

فتبرم بيتر وخاطب نفسه قائلًا: لقد كنت على وشك الاطلاع على سر معلمي لكنه أفلت مني .. ، وأخيرًا لاحت له فكرة طارئة فرفع المقال بيده وقال: أتأذن لي يا سيدي بأخذه إلى البيت لأطالعه؟ فأجابه مستر براد فورد: وبوسعك أن تحرقه إذا أردت أيضًا!

الفصل السابع

ميلاد صحيفة

احتشد الناس أمام مطبعة براد فورد الواقعة في ساحة هانوفر في صباح أو تشرين الثاني سنة **1725** م ، ليحيوا أول جريدة تصدر في المدينة ولما فتح مستر برادفورد باب المطبعة، وهو يحمل مجموعة من "النيويورك غازيت" صاح بعض الناس بصوت عالٍ "هورا ! " ورمى الصبية قبعاتهم في الهواء.

وبعد نصف ساعة خرج الشابان اللذان يتعلمان في مطبعة برادفورد، وراحا يعدوان في الشوارع التي تكدست في زواياها أوراق الخريف المتساقطة عن الأشجار، ويصرخان فرحين ويلوحان بكمية من أعداد الجريدة التي أنيط بهما توزيعها على المشتركين.

والشخص الوحيد الذي لم يشاطر العاملين في المطبعة فرحهم هو بيتر زينجر، كان يحس وهو يقوم بطبع الصحيفة أنه إنما يهدر وقته هدرًا، لقد ملّ من العمل مع مستر برادفورد الجبان.

ولطالما كان يخاطب نفسه قائلا: ليتني أملك مطبعة لطبعت فيها كل ما أريد، ولأتحت الفرصة لسكان نيويورك للاطلاع على الحقيقة كما هي الحالة مع سكان فيلادلفيا.

كان عمل بيتر شاقًا بعد صدور الصحيفة، وما أن بلغت الساعة العاشرة صباحًا حتى طبع العدد الأول أكثر مما يمكن بيعه، فتقدم مستر برادفورد من بيتر قائلًا: انزع عنك مئزر العمل ودر بالصحيفة على الحوانيت ومكاتب المحامين، وهناك قائمة بالرجال البارزين الذين لم يشتركوا بالصحيفة بعد، ولك أن تقدم لكل منهم نسخة على سبيل الهدية.

سار بيتر في شوارع نيويورك في يوم من أيام تشرين الثاني، وكانت السماء صافية والطقس باردًا، وقادته قدماه إلى مستودع الألبسة الخاصة بالسيدة ألكسندر الواقع بالقرب من بيتها الجميل في شارع برواد، وكان عدد كبار تجار نيويورك وقتئذٍ خمسة عشر تاجرًا، منهم سبع سيدات فقرع بيتر باب المستودع، وسلم السيدة ألكسندر نسخة من الصحيفة الجديدة، فقالت مبتسمة أوه شكرًا لك انتظر قليلا واستدفئ بالقرب من النار، ولا ريب بأن زوجي يهمه الاطلاع على هذه الصحيفة، ونادت بأعلى صوتها أين أنت يا جيمس ؟ ..

ودلف إلى المستودع السيد ألكسندر وهو رجل طويل القامة مشعث الهندام لطيف المحيا، وما أن وقع نظره على الصحيفة حتى صاح قائلًا: آه هذه هي الجريدة، إنها أشبه بالمولود الجديد لا أسنان لها ! ..

فابتسم بيتر لهذه الطرفة وقال معلقًا: كن على ثقة يا سيدي بأنها لا تعض ! .. ، وأخذ السيد ألكسندر يتصفح الجريدة ويسبر غورها وهو

أحد محامي نيويورك البارزين ، وأحد الأعضاء الاثني عشر الذين يتألف منهم مجلس صاحب الجلالة.

وفتح الباب على حين غرة ودخل على القوم السيد لويس موريس الابن، وهزّ عدد الجريدة باشمئزاز ورفع صوته قائلًا: انظروا إلى الوريقة القذرة ! ، لم يدر بخلد بيتر أبدًا أن هذين السيدين صديقان حميمان يجتمعان إلى مائدة الطعام في معظم الأحيان، فموريس السياسي الشاب يعادل نصف حجم السيد ألكسندر، وهو دقيق الجسم شاحب اللون حاد النظرات جدي الملامح، أما السيد ألكسندر فكان منبسط الأسارير ضاحكًا ميالًا إلى الدّعة والاطمئنان.

وما أن لمح موريس الطباع بيتر حتى هتف قائلًا: أوه بيتر زينجر أرجو المعذرة لأنني تفوهت بتلك العبارة بحضورك، فأجابه بيتر: لا بأس عليك يا سيدي وإنني أشاطرك الأسى ! ، وجالت في رأس بيتر خاطرة وهو ينقل النظر من ألكسندر إلى موريس فها هو يجلس الآن إلى شخصين ثريين لهما وزنهما وخطورتهما فلربما يوافقانه على ما يفكر به ولعلهما يمدان له يد المعونة، فأخرج من جيبه مقال السيد موريس وقال له: إنني أرغب في طبع مقالكم هذا في كراسٍ مستقل ولا ينقصني إلا مطبعة أكون أنا صاحبها !.. ، فسدد السيدان نظرة الفاهم إلى بيتر، والتزما الصمت لحظات كأنهما يدرسان الفكرة التي أوحى بها، وهو بدوره ينتظر حكمهما في اقتراحه، كان الرجال الثلاثة في عمر واحد على وجه التقريب، فزينجر يرتدي لباس العامل، وشعر رأسه الأغبر مضفر، والسيدان

يرتديان بزتين من الحرير الكستنائي اللون، وعلى رأسيهما ضفيرتان بشكل ذنب حصان، وعمد كل منهما إلى تقليب نسخته من "نيويورك غازيت" وهي عبارة عن أربع صفحات مطوية، يبلغ حجم كل صفحة منها سبعة قراريط ونصف القيراط عرضًا، واثني عشر قيراطًا طولًا، منقسمين إلى عمودين وتتضمن أنباء من إنكلترا تتعلق بأعمال الملك والنبلاء، وأخبار الحرب القائمة في أوروبا، وقائمة بأسماء السفن التي دخلت ميناء نيويورك مؤخرًا ولا شيء آخر غير ذلك، قال موريس: تقول يا زينجر إنك تريد امتلاك مطبعة فلماذا لا تحقق هذه الأمنية؟ ، تنفس بيتر بملء رئتيه، وأحس بالحرارة تتدفق إلى رقبته، والعرق يتصبب من يديه فأجابه وهو يخفي فرحته: لقد فكرت في الأمر مليًا وتبادلت الرأي مع زوجتي واتضح إنني بحاجة إلى ثلاثة وتسعين جنيهًا لشراء مطبعة وأحرف وخوان للطباعة نشتريها من لندن، قال موريس: طيب أنت تدخر مالًا فلماذا لا تشتري به ما تريد ؟ فأجابه بيتر: بوسعي دفع نصف القيمة فقط، قال موريس: وبوسعنا السيد ألكسندر وأنا أيضًا أن نقرضك النصف الآخر، وأدار موريس ظهره لينصرف معتبرًا أن المسألة قد بتّ فيها نهائيًا، فالمبلغ المطلوب ليس عظيمًا بالنسبة له إنه يوازي ثمن حصانين فقط، أما السيد ألكسندر وهو اسكتلندي الأصل فقد ضحك كثيرًا وقال:إنك يا موريس سريع دائمًا في إنفاق أموالي، وانتحى موريس بيتر جانبًا وقال له: سأتحدث إلى مستر ألكسندر في الموضوع، كما سأتحدث إلى أبي أيضًا ولك أن تطلب آلة الطباعة ومستلزماتها من لندن، فنيويورك تكاد تختنق بلا جريدة حرة ولن يستطيع أحد من الناس لومي

على دفع خمسين جنيهًا من أجل قضية عامة مفيدة، ولم يبتعد موريس قليلًا حتى ارتد على عقبيه فجأة، وقال لبيتر والشيء بالشيء يذكر أعطني مقالي، لقد تبادلت الرأي فيه مع عضو آخر من أعضاء المجلس إنه يريد إطالته وجعله أقوى وأحد مما هو عليه الآن، وقريبًا سنقدم لك مادة للطباعة تجعل الناس يتحدثون كثيرًا عن مطبوعات زينجر !

الفصل الثامن

بيتر يمتلك مطبعة

وقف بيتر في وقت مبكر من أحد أيام شهر شباط يودع مطبعة مستر برادفورد لقد كان همه منصرفًا إلى عمله الجديد، فمصيره ومصير أسرته رهن بنجاح هذا العمل.

وجاءت مسز برادفورد إلى المطبعة لتودع بيتر، وهي لا تكبر زوجها سنًا غير أنها كانت تشكو من ضعف وسوء صحة، فما أن رآها بيتر حتى أسرع إليها وطوقها بذراعيه كما يطوق الابن أمه.

وودع مستر برادفورد بيتر بهذه الكلمات " يتراءى لي أننا سنزورك في السجن قريبًا ما دمت تتمسك بآرائك الضارية، وأقول لك أنك إذا أفسحت المجال لنشر كل مقال سياسي مهيج مثير للمشاكسات، فإنك في نهاية الأمر ستدفع الخدم والأجراء والفعلة الفقراء إلى العصيان وإشعال النيران في بيوت سادتهم، فتعقل في خطاك يا بني واحترس" كانت مطبعة زينجر تقع في شارع سميث بالقرب من دار الحكومة " وقد أبدل اسم الشارع اليوم إلى شارع وليام ومكان المطبعة بالدقة في العمارة القائمة بين زقاق مايدن وشارع بيرل" .

وفي اليوم التالي أقام بيتر المطبعة الجديدة بمساعدة أخيه النجار جون، ودخل الفتى موريس على عجل وهو يهز مقاله الشهير بيده الغضة

ويقول: يؤسفني أن أقول لك أنك ستطبع هذا المقال دون توقيع، فإن صديقًا لي تحصل على كثير من المعلومات عن خصومنا وسيحصل على المزيد منها، وعلينا أن نحفظ اسمه في طي الخفاء، وطبع زينجر المقال في ست وثلاثين صفحة، وقد أثار هذا الكتيب نيويورك بأسرها، وأقبل المئات منهم لشراء نسخ منه دون أن يحرقوا عمارات في طريقهم، وفي قليل من الوقت أقبل الحظ على مطبعة زينجر، وتقدم فريق من معارف كاترين في الكنيسة يسألونها طبع أربعة كتب باللغة الهولندية، وكتاب آخر للصلاة لقس هولندي مترجم إلى اللغة الإنجليزية اسمه "السبل القويمة في عبادة الخالق" .

وكان العمل في المطبعة فوق طاقة بيتر، فجاءت كاترين لإسعافه وصارت تخيط ملازم الكتب في أوقات فراغها من الأعباء المنزلية، وتعلمت أسرار صناعة التجليد، فدهش بيتر للسرعة التي أتقنتها فيها، ولم تنقض سنة حتى صارت تصف الأحرف وتقوم بجميع أعمال المطبعة باستثناء العمل على المكبس.

أما جون شقيق بيتر فقد حالفه الحظ أيضًا فابتاع بما ادخره من مال أدوات نجارة جديدة وافتتح محلًا لصنع الموبيليا، وسأله أخوه أن يصنع له كرسيين جديدين ومائدة كبيرة للطعام تتسع لجميع أفراد الأسرة المتنامية، أما أمهما فقد توفيت منذ سنين، واقترنت أختهما كاتي بصديق لبيتر يدعى "فردبيكر"، فافتتحا معًا حانة صغيرة يؤمها البائسون من

المناطق المجاورة، ويتجادلون في الأمسيات في المواضيع السياسية ويتبادلون الأنخاب.

وبدأت المتاعب تعترض سبيل بيتر، فقد أحجم كثير من الناس عن الطباعة عنده، لأنه كان بطيئًا في عمله ويخطئ في التهجئة ولا يجيد التجليد، ولم يبق أحد مواليًا له سوى أسرة موريس، فقد أسعفه ذات يوم السيد لويس موريس الأب قاضي قضاة المحكمة العليا، بأن أرسل له عبدًا يحمل نشرة حكومية هامة يسأل طبعها في مطبعته وكانت هذه النشرة تتضمن رأيًا رسميًا ينفي وجود سحرة أو ساحرات في نيويورك ! ، كان الإقبال على هذه النشرة عظيمًا، وباع زينجر كميات كبيرة ومضت عليه سنين لا يطبع كل سنة سوى كتاب واحد، بالإضافة إلى طبع العقود والصكوك، وهكذا أخذ دخل بيتر يتضاءل في حين أن عدد أفراد أسرته آخذ في الازدياد، ورأت الكنيسة أن تدفع له ثانية الأجر الزهيد لقاء النفخ في الأرغن، وكان لبيتر صديق اسمه هنريك ميشيل كوك يمارس العزف على الأرغن، فتأثر به بيتر وصار يتلقى دروسًا في العزف، طالع بيتر في أحد أعداد صحيفة " فيلادلفيا أميريكان ويكلي مركوري" الصادرة في شهر أيلول سنة **1729** خبرًا هزه هزًا، فلطم قبعته على رأسه وهرع إلى معلمه القديم مستر برادفورد، فالخبر هذا يشير إلى زج أندرو برادفورد في السجن، لنشره سلسلة من المقالات بعنوان "أوراق مثيرة" كتبها بنيامين فرانكلين وأصدقاؤه، ومنها مقال كتبه صديق أسرة زينجر القس الدكتور كامبل من "لونغ آيلاند" دعا فيه إلى الحرية وإلى

مناهضة حكم القوة الموروث، وكان لهذا المقال أثره في السلطات القائمة، فأمرت باعتقال أندرو برادفورد ومقاضاته.

وتوجه بيتر للتو إلى ساحة هانوفر حيث تقوم مطبعة برادفورد الشيخ وقال له: إني آسف لما حدث لابنك!..

فقاطعه الشيخ قائلاً: ادخل يا بيتر، فالأمر ليس خطيراً.. فأندرو شاب فطن، وقد تلقيت منه رسالة قبل نصف ساعة يقول فيها إنه يفاوض السلطات لإخلاء سبيله.. ولا أدري إن كانت محاولته هذه ستتكلل بالنجاح.. وعلى كلٍ فليكن هذا الحادث عبرة لك!..

عاد زينجر إلى بيته مقطب الوجه.. يخاطب نفسه قائلاً: تري لو اعتقلت أنا فهل أفاوض كما يفاوض أندرو أم أنني أحاكم وأعاقب؟..

وبينما كان بيتر ينشد الراحة في عصر أحد الأيام، وهو يتصفح "بنسلفانيا غازيت"، استرعى انتباهه اسم ناشرها الجديد، وهو بنيامين فرانكلين، فالصفحة الأولى منها تقول فيما تقوله: "لقد رغب الكثير من الناس بمطالعة صحيفة جيدة في بنسلفانيا.."

هب زينجر ناهضاً، ودعا زوجته قائلاً: كاترين. تعالي واستمعي إلى هذه العبارة..

فهرولت على الدرج الخشبي مسرعة فقرأها لها.. فضحكت وقالت: إذا كان الناس في بنسلفانيا يرغبون في رؤية صحيفة أفضل من صحيفة

أندرو برادفورد، فلماذا لا يرغب سكان نيويورك في رؤية صحيفة أفضل من "نيويورك غازيت" البلهاء التي يصدرها أبوه!..

هتف زينجر قائلاً: آه.. لو كان في حوزتي بعض المال لأصدرت صحيفة بذاتي!..

وتناولت كاترين جريدة فرانكلين، وجلست على الدرجة السفلى، مسندة رأسها إلى راحتيها، وراحت تطالعها.

قال بيتر معترفاً: إنني لا أفقه فرانكلين هذا.. ، فهو ينشئ مطبعة في فيلادلفيا كمزاحم لبرادفورد الشاب.. وأنا أنشئ مطبعة في نيويورك كمزاحم لبرادفورد الشيخ، والفارق بيننا أن فرانكلين ينجح في عمله، وأنا أخفق.. وتأوه بيتر، ثم تابع كلامه قائلًا: وفرانكلين يصغرني بعشر سنوات أيضاً!..

فأجابته زوجته وهي تقلب الصحيفة بين يديها: لا تيأس.. فسيأتي يوم نصدر فيه صحيفة كهذه.. أجل، صحيفة كلها حيوية!.. ولا ريب بأن فرانكلين هذا يعرف تمام المعرفة ماهية الأخبار التي تهم الجمهور.. انظر.. ، وقربت الصحيفة من زوجها.. انظر لقد نشر في الصفحة الأولى تعليقات على النضال السياسي في بوسطن.. فما علينا نحن الآن إلا أن نعمل على بيع صحيفته في مطبعتنا، وأن ندرسها كل أسبوع درساً وافياً، وسنتعلم منها كيف تكون الصحيفة الجيدة!..

الفصل التاسع

الحاكم الجديد وكلماته الأولى

عين بيتر زينجر سنة **1731** م عازفاً على الأرغن في الكنيسة بدلاً من صديقه ومعلمه في العزف هنريك ميشيل كوك، الذي انتقل إلى كنيسة أخرى جديدة.. ولقد أحب الطباع هذه الآلة الضخمة، وكان يمتع نفسه بالعزف عليها بأصابعه القوية الغليظة.

ومات حاكم نيويورك على حين غرة، وانقضت شهور قبل أن يعين ملك إنكلترا حاكماً غيره، وكان السيد "ريب فان دام"، أكبر أعضاء مجلس صاحب الجلالة سناً، يقوم بأعمال الحاكم، وهذه المهمة مضنية بحد ذاتها لكنها تعطيه راتباً جيداً.

كان بيتر يعي تقلبات الأوضاع السياسية هذه، إلا أنه لم يتوقع أن يكون لهذه التقلبات علاقة بشخصه مباشرة، فهو معجب بالقائم بأعمال الحاكم الشيخ، ويطبع له مختلف الأوراق الرسمية، وكثيراً ما كان يزور حوض السفن الذي يملكه والواقع في الناحية الغربية السفلى من شارع برواد، وعزف مؤخراً على الأرغن في بيت السيد فان دام لحناً مهدهداً بمناسبة عماد ابنه البكر.

وفي مساء **31** تموز سنة **1732** م توجه بيتر مسرعاً إلى الميناء ليكون في عداد من يستقبلون الحاكم الجديد.. ، وكانت النجوم، نجوم الصيف الناعمة التي لا تعد ولا تحصى، تتألق في السماء، والهواء العليل يهب عبر الميناء الواسع، ويؤرجح القناديل التي يحملها الخدم والعبيد.

ذهب بيتر إلى الميناء في وقت مبكر ليؤمن لنفسه مكاناً في الصف الأول من المستقبلين، قريباً من السيد فان دام، صانع السفن القديم، وقريباً من الموظفين الذين يحفون به، وكلهم ظاهرون للعيان تحت أضواء السفينة الحربية الكبيرة التي تلج الميناء وئيداً وترسو عند الرصيف وأشرعتها تصفق من كل جانب.

وسمع زينجر القائم بأعمال الحاكم يقول: "ما الداعي لقلقي هذا؟.."، فرئيس مجلس صاحب الجلالة في الثانية والسبعين من عمره، وقد أحنى العمر ظهره.. وحكم بالنيابة مدة ثلاثة عشر شهراً تنتهي هذه الليلة.. والنيوبوركيون يجلونه، ويقدرون نزاهته فهو من دون الحكام السابقين لم يغتنم الفرصة ليثرى على حساب دافعي الضرائب.

ووقفت لجنة الاستقبال، المؤلفة من أعضاء المجلس وكبار التجار، والقلق بادٍ على وجوه أفرادها، ترقب البحارة وهم يقيدون السفينة الخشبية الضخمة إلى أعمدة الرصيف.

فأول من غادر السفينة جماعة من الجنود، وقفوا في صفين عند الرصيف، وهم يمسكون بالبنادق الطويلة المثبتة إليها الحراب، وبعد

لحظات خرج من السفينة مسرعاً رجل قصير القامة، قوي البنية يرتدي رداءً رسمياً أحمر اللون، يلوح أنه ضاق على جسمه، ومر من بين الصفين في تيه وخيلاء، فعرف فيه زينجر للتو الحاكم الملكي الجديد الكولونيل ويليام جوسي.

وتبعته زوجته لادي جوسي، وابناهما بيللي وهنري (وهذا شاب ضخم مقطب الحاجبين)، وابنتاهما الجميلتان إحداهما في السادسة عشرة، والأخرى في الثامنة عشرة، ترتديان ثوبين مستديرين يعرقلان سيرهما، فكانتا تجتازان الرصيف، وكأنهما تتدحرجان على عجلات.

وبدت لادي جوسي ساذجة، لكنها حادة الطباع وعلم زينجر أنها شقيقة رجل خطير الشأن هو الإيرل هاليفاكس.. وسار أمامها كلب صغير ينبح، أمسكته بشريط من حرير.

ولما كان السيد ألكسندر أقدم أعضاء المجلس فقد تقدم من الحاكم الجديد وخاطبه قائلاً: يا صاحب السعادة.. إن لجنة الاستقبال ترحب بكم باسم..

فصاح جوسي في وجهه قائلاً: لا تخاطبني قبل أن تُخاطب!..

فاحمر وجه المحامي الطويل القوام لهذه المباغتة غير المنتظرة، لكنه لم يتقهقر.

ووضع الحاكم الجديد قبضتيه على جنبيه، ودفع كوعيه إلى الأمام قليلاً، وخاطب السيد ريب فان دام قائلاً: لقيد قيل لي أنك رئيس المجلس، أليس كذلك؟..

انحنى فان دام قليلاً وقال: لقد تشرفنا بمقدم صاحب السعادة كثيراً..

فأجابه جوسي بلهجة فيها مسحة من اللطف: نعم.. نعم.. جيد جداً.. لقد عملت أنت بالنيابة عن الحاكم المتوفى.. واسمه!.. ذكر اسمه.. أليس كذلك؟..

قال فان دام: أجل يا صاحب السعادة لقد قمنا بعملنا هذا على أكمل وجه وبمعونة السكان المسالمين الذين يظهرون كل ولاء للسلطات القائمة في البلاد..

فسأله الحاكم وقد زاد لطفاً عن ذي قبل: لا ريب في أنكم احتفظتم لي براتبي منذ وفاة الحاكم حتى الآن.. أليس كذلك؟..

ذهل زينجر لهذا السؤال، بلغته دمدمة الاحتجاج في صفوف الموظفين المستقبلين، ورأى فان دام يلهث من هول المفاجأة، ثم أجابه: إن راتبكم يا صاحب السعادة يبدأ اليوم فقط!..

احتبس الدم في وجه الحاكم الجديد، وزأر قائلاً: قذارة.. أتحدثني بهذه الترهات!..

غير أن سخطه هذا قد زاد فان دام إصراراً وعناداً وقال: أرجو ألا يتوقع صاحب السعادة الحصول على راتب قبل أن يبدأ علمه!..

فصار الحاكم الجديد يهتز ويتراقص غضباً وقال: قبل أن أبدأ عملي!.. أن أبدأ عملي!.. فما الذي كنت أفعله حتى الآن؟.. ألم أعمل من أجل هذه البلاد وأنا في إنكلترا.. ألم أكافح "قانون السكر" في مجلس العموم؟..

أجل، سأجعلكم تفهمون أنني أريد مكافأة على خدماتي هذه.. ستفهمون ذلك بالرعود والصواعق!.. هيا أروني المسكن الحقير الذي تسمونه منزل الحاكم!.. واندفع إلى المدينة هائجاً فائراً

الفصل العاشر

اجتماع المناضلين

كان الكثير من أصدقاء زينجر وأقاربه يترددون على محله لشراء الصحف والثرثرة، فيسمع منهم شائعات عديدة، ومعظمها يتعلق بنفور أوساط السكان الفقيرة من الحاكم الجديد.

حدث ذات مرة أن توقف مزارع بعربته في طريق جوسي، فما كان منه إلا أن أمر الحوذي بضربه بالسوط، فضربه هذا حتى كاد يقضي عليه، وقام المزارع المسكين يجر نفسه جراً، وهو عاجز عن الاحتجاج على هذه المظلمة، وليس بميسوره طلب توقيف الحاكم ومقاضاته، يضاف إلى ذلك أن مستر برادفورد قد غض الطرف عن الحادث، ولم يأت على ذكره في صحيفته، فظل مجهولاً لكثير من الناس.

وتمادى الحاكم جوسي في طغيانه فاختلس بعض الحجج الخاصة بأراضي الهنود الحمر وأحرقها، وإذا ما وفد مهاجرون جدد وطلبوا إقطاعهم بعض الأراضي بالطرق القانونية، أعطاهم ثلثي الأرض واحتفظ لنفسه بالثلث المتبقي، فسرعان ما أصبح يملك أراضٍ شاسعة، وقد أسدل مستر برادفورد الستار على هذه الفضائح أيضاً ولم يذكرها في صحيفته أبداً.

وفوجئ السيد ريب فان دام بطلب من جوسي، يسأله فيه أن يدفع له تسعمائة جنيه، وهو نصف المرتب الذي تقاضاه الشيخ الهولندي خلال الفترة التي عمل فيها بمثابة القائم بأعمال الحاكم، وهذا المبلغ الذي طلبه جوسي ضخم، يعادل ثمن بيت كبير غير أن فان دام لم يعره انتباهًا، ورفض دفع المبلغ المطلوب منه رفضًا باتًا.

كان الحاكم يدرك تمام الإدراك أن أحدًا من المحلفين لن يصدق ادعاءه ضد فان دام، فعقد النية على تشكيل محكمة جديدة لتقاضي الشيخ الهولندي دون الرجوع لهيئة المحلفين.

وتم في هذه الأثناء افتتاح مسرح في أحد المخازن التي يملكها فان دام، وكان بيتر وكاترين في عداد من حضر أول حفلة قدمها هذا المسرح، ولكنهما جلسا في أزهد المقاعد ثمنًا، ولم يسبق لهما مثل معظم سكان نيويورك أن شاهدا تمثيلية، أو ولجا مسرحًا، وكان المكان غاصًا بالناس فخيل لهما أن المدينة بأسرها تشاهد التمثيلية، واسترعى انتباه بيتر خلو المسرح من مقعد الحاكم، وأن عددًا كبيرًا من وجهاء المدينة وأثريائها قد تخلفوا عن حضور حفل افتتاح أول مسرح في نيويورك، وبات يعتقد أنهم إنما فعلوا ذلك تظاهرًا منهم ضد الشيخ فان دام الطيب.

وما من ريب في أنه كان للحاكم جوسي أصدقاء وأنصار غير أن بيتر لم يتصور قط أن سخطهم على الشيخ فان دام، سيحملهم على

تفويت فرصة هامة كافتتاح مسرح نيويورك، إذن هناك أشياء في الجو تنبئ بوقوع حوادث سياسية خطيرة.

واتجه تفكير بيتر إلى المهمة التي سيقوم بها بوصفه طبّاعًا، فالنضال السياسي يتطلب التعاون الوثيق مع الطبّاعين وأخذ بيتر وكاترين العجب حين رفع الستار وشاهد رجالًا ونساءً ينقلون خطاهم على المسرح ويتحدثون، لقد كانت التمثيلية هزلية إنكليزية تسمى "مأمور التجنيد" ، وانتهى الفصل الأول فسرّا له وضحكًا كثيرًا.

وفي فترة الاستراحة نهض نصف الحضور على وجه التقريب وراحوا يتنقلون من مكان إلى مكان، ويضحكون ويتبادلون التحية، فشاهد المحامي السيد ألكسندر وهو يهمس في أذن أحدهم، كما شاهد فان دام يفعل الشيء ذاته.

نهض الطبّاع وكاترين وسارا بين الحضور، فلما صارا بالقرب من فان دام حياهما هذا، وقال لبيتر باللغة الهولندية: أسمعت آخر الأنباء؟ فهز الطباع رأسه إيجابًا قال له فان دام: وما رأيك في هذه القضية؟ كان جواب بيتر خافتًا خشية أن يسمعه أحد: وما الذي حمل الحاكم على منع المحلفين من البت في القضية؟ ، يلوح لي أنه إنما يقصد من وراء ذلك إرغامك على دفع ما يريده من مال، وهذا هو الاستبداد بعينه، فشد الهولندي المسن على يد بيتر وقال: إن تصريحك هذا ليدل على أنك تقف إلى جانبنا، وعلينا أن نكافح معًا !.. وابتعد فان دام مسرعًا ليتحدث إلى شخص آخر قبل البدء بالفصل الثاني من التمثيلية.

الفصل الحادي عشر

الحاجة إلى طبّاع جريء

لقد تألفت المحكمة الخطرة التي أرادها جوسي من قضاة المحكمة العليا ذاتهم، ودون استشارة قاضي القضاة موريس " وابنه لويس صديق السيد ألكسندر"

ولما حاول الحاكم مقاضاة فان دام أمام هذه المحكمة، نهض قاضي القضاة وشجبها قائلًا، إنها أقيمت ضد إرادة المجلس الذي انتخبه الشعب، وختم كلامه بقوله: وإنني ببركة الله، وبوصفي قاضي قضاة هذه المقاطعة، أعلن رفضي الخضوع لمشيئة هذه المحكمة في هذا الشأن !.. ونهض فجأة وغادر قاعة المحكمة.

تهافت بيتر وزوجته في صبيحة يوم الإثنين على مطالعة صحيفة مستر برادفورد "نيويورك غازيت" ، فوجداها خلوًا من أي ذكر لموقف قاضي القضاة من الحاكم المستبد.

وألقت كاترين الوريقة جانبا، وأخذت تخيط معطفًا لابنتهما وخاطبت بيتر قائلة: لقد انضم قاضي القضاة إلى باقي العاملين ضد الحاكم الجديد، ويلوح لي أن المعركة قد بدأت، وأن المناضلين يريدون اطلاع الشعب على مسلك الحاكم الجائر أما سألوك أن تصدر لهم صحيفة؟ .

فشد بيتر المئزر على وسطه، وأمسك بيده الطابعة وقال مستبشرًا شامتًا: لقد تحدثنا بصدد هذه الصحيفة والفرصة سانحة ولا ريب!..

وجاء السيد ألكسندر في تلك الليلة إلى المطبعة، وسأل بيتر اطلاعه على نسخة من الخطاب الذي ألقاه قاضي القضاة في المحكمة، والذي سينشر في كتيب صغير، وحضر على الإثر لويس موريس الابن مضطربًا، وكان قبل حين في دار الحكومة يسهم في القرار الذي اتخذته لجنة مجلس المقاطعة ضد المحكمة الجديدة.

كان لويس وقتئذٍ في الرابعة والثلاثين، "أي أنه يكبر زينجر بسنة واحدة" ، وينعم بفكر نير ويقيم مع زوجته الحسناء، وابنه البالغ من العمر ست سنوات، في مقاطعة "وست – تشستر " حيث يعمل كمشرّع ووجيه ومدير لأملاك أبيه الشاسعة، وكان قد عزل من مجلس صاحب الجلالة بسبب الملاحظات العنيفة التي يبديها بين حين وحين، لكنه سرعان ما انتخب عضوًا في المجلس التشريعي بدلًا من ذلك المنصب.

استقبل زينجر هذين السيدين بالترحيب، وقدم لهما مقعدين وهو يحس في قرارة نفسه أنهما يحسان مثله بالحاجة الماسة إلى صحيفة، وأنهما ما جاءا إليه إلا لجس نبضه بهذا الشأن.

افتتح الفتى موريس الحديث بلهجة تنم عن روح الصداقة والمودة قائلًا: أتستطيع يا بيتر أن تريني الأحرف التي جاءتك بالباخرة اليوم؟ ..

كانت كاترين وقتئذٍ تخيط الثياب لأطفالها في الطابق العلوي، فما أن سمعت أصوات الرجال في الطابق السفلي حتى هرولت على الدرج المتداعي على عجل كي لا تفوقها أحاديثهم الهامة ولا ريب.

وأخرج السيد ألكسندر ورقة من جيبه وقال وهو يهز رأسه: لقد تلقيت اليوم رسالة من صديق لي في لندن، يذكر فيها أن جوسي هو الابن العاشر لنبيل أيرلندي،.

فهتف زينجر قائلًا: الابن العاشر ! ألا يعني هذا أنه الابن الفقير؟

وتابع السيد ألكسندر قوله: وكان جوسي قبل فترة قصيرة من الزمن حاكمًا على مستعمرة أخرى هي جزيرة مينورقا، الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط.

تساءلت كاترين: أكان جوسي هناك أعدل في حكمه من هنا؟

فأجابها السيد ألكسندر: لقد كان جوسي عادلًا لنفسه فقط، ويحكى عنه أنه أثار شجارًا مع تاجر أسباني يملك حمولة سفينة من السعوط يقدر ثمنها بتسعة آلاف جنيه، ثم استولى على هذه الحمولة، وباعها وراح ينفق ثمنها على شراء الألبسة والخمور، والعربات غير أن سكان مينورقا رفعوا شكواهم إلى لندن، فجرمته السلطات هناك، واتهمته باقتراف عمل غير قانوني واستدعته إلى بلاده ..

صاح موريس غاضبًا: أهذا هو الرجل الذي أرسلوه ليكون حاكمًا علينا؟

فأجابته كاترين: يلوح لي يا سيدي أن لجوسي أصدقاء من ذوي النفوذ.

ورفع السيد ألكسندر الورقة التي يحملها في يده وقرأ فيها: أجل فإن جوسي هو صديق دوق أوف نيوكاسل ، ودوق أوف جرافتون وهو بالإضافة إلى ذلك صهر إيرل هاليفاكس وزير مستعمرات صاحب الجلالة.

فعلق موريس على هذه الأنباء بقوله: وسنواجه مشقة في التغلب عليه بوجود مثل هؤلاء الأصدقاء إلى جانبه، وسيكون هو في هذه المرة أكثر حذرًا.

تساءل زينجر: لا أدري أي رجل هو في شخصيته أهو قدير؟

فرفع السيد ألكسندر الرسالة ثانية وقرأ فيها: ولم ينل جوسي قسطًا وافرًا من التثقيف، وهو رجل قليل الذكاء، محدود الحس والإدراك وهمه الأوحد جمع المال، ومبدؤه السياسي يقوم على استعمال القوة، ويميل في طبعه إلى الكبرياء والتعجرف، بالإضافة إلى نزواته الحادة، وفقدانه السيطرة على إرادته.

ضرب الفتى موريس المنضدة بقبضة يده وقال: أهذا هو ممثل الملك في نيويورك وقد أرسلوه لنا ليحكمنا، وليتصرف بأملاكنا؟

والتفت السيد ألكسندر إلى الطباع وسأله: ما قولك يا بيتر في الأنباء الأخيرة؟ لقد عزل جوسي قاضي القضاة من منصبه!

قال زينجر معترفًا: ولكنني لا أفقه المعنى من عزله هذا ، فأجابه المحامي موضحًا: المعنى من ذلك أن بوسع الحاكم اعتقال أي شخص يغضب عليه، وتقديمه للمحاكمة بتهم ملفقة وإذا ما حاول الدفاع عن نفسه يقول للقضاة: جرّموا هذا الرجل أو إنكم ستفقدون مناصبكم !..

ولاحظ زينجر وزوجته وهي تومئ له من خلف القماش الذي تخيطه، وتحثه بأن يتكلم في موضوع الصحيفة، وكان يتردد في إثارته تحسبًا للعواقب، وأخيرًا خرج عن صمته وقال: لا يصح أبدًا أن تظل نيويورك بلا صحيفة تنبه الشعب وتوجهه!..

كان الفتى موريس ينقل خطاه في المطبعة قلقًا، وتوقف فجأة وقال: أظن أنه قد بلغكم أمر تأليف الحزب السياسي الجديد الذي سيكافح الحاكم الجديد، ويرغم السلطات في لندن على استدعائه أو يرغمه هو على تحسين مسلكه، إننا نؤلف حزب الشعب، وسندافع عن حقوق الشعب، وقد اخترنا السيد ألكسندر ليكون لنا رئيسًا وقائدًا .

هتفت السيدة زينجر قائلة: هّانينا ونحن لكم من المؤيدين

فرفع السيد ألكسندر كتفيه وأمارات العزم بادية على محياه وشكر للسيدة زينجر وقال: إننا بحاجة ماسة إلى مساعدتكما، فالحزب تلزمه صحيفة تمثله.

وتساءل الفتى موريس بإصرار: أي متى ستصدر هذه الصحيفة؟

إننا نريدها لتدافع عن الشعب ضد الحاكم الجديد ..

فهز السيد ألكسندر رأسه مؤيدًا ، وأحس بيتر أنه معني بالأمر فقال: لقد ادخرت القليل من المال لهذه الغاية .

فانتفض موريس وقال: إذا تعهد السيد ألكسندر التحرير، أتعهد أنا جمع المال، سأتجول في كل مكان والقبعة في يدي، وسيدفع السيد فان دام عشرة جنيهات، وسيدفع أبي مثل هذا المبلغ، وسيسهم كل زعيم في حزب الشعب في الإنفاق على الصحيفة.

وتقدم زينجر برجاء قائلًا: إن طبع صحيفة أسبوعية يتطلب استئجار عامل دائم!..

أطرق السيد ألكسندر لحظة وقال: سأكتب إلى صديقي السيد أندريه هاملتون في فيلادلفيا وأستشيره بهذا الصدد، فقد ذكر لي ذات يوم أن له صديقًا طباعًا يدعى بنيامين فرانكلين، فلعلهما يتعاونان في إيجاد العامل المساعد المطلوب.

لقد أدرك زينجر أن طبع الصحيفة العتيدة سيسبب له متاعب خطيرة، وسبق له أن سمع التحذيرات التي وجهها القاضي هاريسون إلى السيد برادفورد، كان الطباع في قلق عظيم، فأي شيء سيباشر بطبعه؟ وأي قصاص سيتزله به الحاكم جوسي وخاصة بعد أن صار يصدر أوامره إلى القضاة ؟..

الفصل الثاني عشر

انتخابات مقاطعة وست ـ تشستر

قدم السيد ألكسندر ذات يوم مسرعًا إلى مطبعة زينجر، ليحيطه علمًا أن أحد رجال لمجلس من مقاطعة "وست تشستر" قد توفي، وأن الحاكم جوسي سيصدر أوامره لإجراء انتخابات خاصة لاختيار من يحل محله

وتجهم وجه السيد ألكسندر الصبوح حين علق على ذلك بقوله: هذه أول فرصة تتاح لنا لاختبار قوة حزب الشعب الجديد، وسنرد على جوسي لعزله القاضي موريس من المحكمة العليا، بترشيح القاضي ذاته في انتخابات "وست تشستر"، فأولئك الذين يؤيدون الحاكم جوسي سيمنحون أصواقم لمرشحه، وهو معلم مدرسة يدعى فوستر، أما أولئك الذين لا يريدون وضع القضاة في قبضة جوسي فسيمنحون أصواقم للسيد موريس.

قال زينجر وهو يتسلم مخطوطة من السيد ألكسندر: سأتولى طبع هذه المخطوطة على الفور!..

فأردف السيد ألكسندر قائلًا: وقد آن الأوان لإصدار الصحيفة التي نريدها، وسأحضر لك العامل المساعد من فيلادلفيا قبل نهاية هذا الأسبوع، ومما لا ريب فيه أن مستر برادفورد سيمتنع عن نشر أي شيء

في صحيفته الهزيلة، ولا بد لشعب نيويورك أن يحاط علمًا بهذه الانتخابات وأن يدرك مغزاها.

وما أن بزغت شمس يوم الإثنين، التاسع والعشرين من شهر يونيو "حزيران" سنة **1733** م حتى دخل القاضي ومؤيدوه الساحة الخضراء الواقعة في ضواحي مدية وست – تشستر " ، وتدعى اليوم مونت فرنون" ..

فاستقبلهم خمسون فارسًا بهتافات الانتصار، وكان هؤلاء الفرسان يرابطون هناك منذ منتصف الليل لمنع الحاكم جوسي من القيام بأية ألاعيب تؤثر في سير الانتخابات، وقام الفرسان كلهم وقد بلغ عددهم الثلاثمائة باستعراض كبير، فطافوا شوارع المدينة ثلاث مرات وهم ينفخون في الأبواق والسكان يرقبون مندهشين، والواقع أن المدينة لم تشهد استعراضًا انتخابيًا كهذا الاستعراض منذ أن برزت إلى الوجود .

وكانت هناك ثلاث حانات تقع في الجهة المقابلة لكنيسة القديس باول، اثنتان منهما تخص السيد جوزف فولر والثالثة تخص السيد تشايلد وقد أعدت إعدادًا حسنًا، ونصبت فيها موائد الطعام والخمور، تحت إشراف السيد موريس وطهاته الذين أتى بهم من أملاكه الواسعة الوقعة في موريسانيا ، فأقام الجميع عيدًا فخمًا مرحًا في ليلة اشتد فيها صقيع الخريف.

وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا ارتفعت في الساحة ضجة، استرعت انتباه الجميع، وكان زينجر في تلك الآونة يطل من نافذة الحانة وهو يمسك بيد قطعة خبز وباليد الأخرى شريحة من اللحم، فشاهد وليام فورستر مرشح الحاكم يدخل الساحة ممتطيًا صهوة جواده على رأس رهط من الفرسان.

ووليام فورستر هذا معلم فقير، في مدرسة تشرف على كنيسة "وست – تشستر" ، لكنه استطاع بطريقة ما أن يرشي الحاكم جوسي بمائة بيستولس[1] ليعينه في وظيفة كاتب محكمة، وقد طمع الآن في عضوية المجلس .

ولما رأى زينجر هذا المشهد ألقى بقطعة اللحم جانبًا، متذكرًا أنه ما حضر إلى هذا المكان إلا ليزود جريدته بجميع التفصيلات المتعلقة بهذه الحملة الانتخابية، وهرع إلى الساحة كمخبر صحفي فخور بهذا العمل الأولي الذي يقوم به، ولكن أيجرؤ على طبع أنبائه؟ وماذا يحل به لو طبع أشياء لا يريدها الحاكم جوسي؟

وراح يراقب استعراض الخصم في الساحة الخضراء، فشاهد مرشح الحاكم يتبعه سيدان راكبان يحملان لواءين وقد أخذته الدهشة حين رأى قاضي القضاة الجديد جايمس دلانسي، والقاضي فردريك فيليب يتبعان الثلاثة على جواديهما، وسمع زينجر في هذه الآونة أحد رجال حزب

[1] بيستولس: عملة إسبانية كانت تتداول في نيويورك بصورة خاصة، بمعدل أربع دولارات للبيستول الواحد

الشعب يتساءل: ما الذي يفعله القاضي دلانسي هنا ؟ إنه ليس من سكان وست – تشستر !..

فأجابه أحدهم : وما الذي يفعله السيد ألكسندر هنا أيضًا؟ لقد حضر هذه الحملة الانتخابية بوصفه زعيمًا لحزب الشعب، والقاضي دلانسي حضرها بوصفه زعيمًا لحزب المحكمة، غير أن أنصاره قلة بالنسبة لأنصار ألكسندر، وأحصاهم زينجر وهو يضحك فكانوا مائة وسبعين فارسًا، أي نصف عدد أنصار قاضي القضاة السابق.

كان السيد موريس يقف في الصف الأول من المراقبين، فمر به المرشح الجديد دلانسي والقاضي فيليب، "وكان زميلًا للسيد موريس الأب مدة سنتين في المحكمة العليا" وما أن وقع نظر فيليب على السيد موريس حتى رفع قبعته وحياه بلطف، فرد عليه برفع قبعته أيضًا أما دلانسي فمر بالقوم مقطب الوجه، وقد ابيض من الحنق فلم يرفع قبعته ولم يحيي أحدًا، فتيقن زينجر أن المسألة أكثر من اختلاف في الرأي إنها قتالٌ حقيقي.

وطاف ركبان حزب المحكمة في الساحة الخضراء مرتين ثم ترجلوا عن خيولهم، ولجأوا إلى الحانة الثالثة، حيث أعد لهم دلانسي اللحوم المشوية.

واغتبط زينجر إذ رأى جماعة من الكريكوز يقفون إلى جانب السيد ألكسندر، وقد عرفهم من قبعاتهم وألبستهم الخالية من الأزرار الفضية.

وبعد ساعة من الزمن أقبل "شريف" المنطقة أي المشرف على الأمن فيها، واسمه نيقولا كوبر، وهو رجل قصير القامة عبوس يمتطي صهوة جواد جميل، ويحمل غدارة وسيفًا محلى بالفضة، فصرخ أحد الحضور قائلًا: إن الغدارة التي يحملها هي غدارة الحاكم ويليام جوسي !.. وصاح رجل آخر: والسيف الذي يحمله هو سيف الحاكم، وصاح زينجر: والجواد الذي يركبه هو جواد الحاكم أيضًا !..

واحتشد الناخبون في حوانيت الساحة الخضراء، ووقف مدير الأمن في مكان مرتفع في الجهة المقابلة للكنيسة، وبسط ورقة كان يحملها، وأخذ يتلو مضمونها بصوت مرتفع وسريع جدًا، غير عابئ ما إذا كان الناس يفقهونه أو لا يفقهونه، لأنهم اعتادوا سماع "الشريف" في الانتخابات وهو يتلو نص التفويض الذي يمنحه إياه الحاكم لإحصاء الأصوات، وما أن انتهى من تلاوتها حتى قال: وبوسع الناخبين أن يختاروا الشخص الذي يريدونه ، وخيل للقاضي دلانسي والمرشح فورستر أن الانتخابات ستجري بطريقة جد بسيطة، فأعلن دلانسي قائلًا: على جميع الناخبين الذين يؤيدون مرشح الحاكم أن يتجمعوا في الجهة اليمنى من الساحة !..

فارتاح السيد ألكسندر لهذا الأمر وسأل مؤدي مرشح حزب الشعب أن يقفوا خلفه، فأسرعوا إلى تلبية رغبته ضاحكين مرحين لأنهم كانوا على ثقة بأنهم أكثر عددًا من أنصار الحاكم .

ولما رأى مدير الأمن" المكلف من قبل الحاكم" أن النتيجة جاءت في غير صالح سيده، صاح بأعلى صوته : لقد طلب منا إحصاء الأصوات!..

فتقدم ألكسندر وأجابه صارخًا: من الذي طلب منك هذا الأمر؟ إن أحدًا من الناخبين لم يطلب إجراء التصويت الفردي بعد أن ظهرت النتيجة الإجماعية فرد عليه مدير الأمن بعناد: لا بد من إجراء التصويت!.. وتابع السيد ألكسندر تقدمه وقال: إلى أي جانب تقف الأغلبية ؟

فأجاب مدير الأمن: ومع ذلك لا مفر من الإحصاء الفردي للناخبين، كرر السيد ألكسندر سؤاله و"الشريف" يعطيه الجواب ذاته فاضطر سيد موريسانيا الذي اعتاد الإذعان إلى القانون دائمًا، أن يذعن لرغبة مدير الأمن أخيرًا .

وشق "الشريف" طريقه إلى حانة ذات رواق، وانقضت ساعتان من الزمن حتى انتهى الناس من إعداد الموائد والكراسي، ثم تم تعيين كاتبين ومراقبين من كل جانب، وشرع القوم بإجراء الإحصاء.

وكانت الطريقة في الانتخابات أن يتقدم الناخب أمام الجميع فيذكر اسمه ويعلن بأعلى صوته اسم الشخص الذي ينتخبه، وكان لهذه الطريقة من الانتخاب العلني فائدها، فهي لا تمكن الحاكم من التلاعب بالأصوات لأن الناس كلهم يسمعوها ولهم الحق في تعدادها، وكان زينجر والسيد ألكسندر في جملة من انصرفوا إلى إحصاء الأصوات .

لكن الأمر لم يخل من معاكسات لمرشح حزب الشعب، فإذا ما أعطى أحدهم صوته للسيد موريس، انبرى له مراقب حزب المحكمة، وسأله فيما إذا كان يملك أرضًا أو بيتًا أو ماشية في مقاطعة وست – تشستر، لا يقل ثمنها عن أربعين جنيهًا، وإذا لم يثبت ذلك حرم من حق التصويت، أو توجب عليه أن يستدعي عددًا من معارفه ليشهدوا بأنه يقتني الملكية المقررة.

وأخيرًا أقر رأي "الشريف" أن يحضر الكتاب المقدس ليقسم الناخب اليمين بأنه يملك ما يساوي أربعين جنيهًا .

وتقدم ناخب لا أزرار فضية على قبعته وسترته، فوقف أمام الطاولة وقال: إنني أعطي صوتي للسيد موريس !..

فهمس المرشح فورستر في أذني المراقبين التابعين لحزب المحكمة قائلًا: أيملك هذا الشخص أرضًا أو بيتًا أو خلافه؟

فانبرى عدد من أنصار حزب الشعب وشهدوا في مصلحته، غير أن الشريف اهتاج وأمسك الكتاب المقدس بيده وقدمه للكواكري قائلًا: أقسم على هذا الكتاب بأنك من المالكين !..

غير أن الكواكري تراجع إلى الخلف وهبت على الإثر عاصفة من الاحتجاج بين جماعة حزب الشعب، فالكل يعرف أن الكواكريين لا يقسمون اليمين على الكتاب المقدس، وقد أذن لهم القانون بأن يكتفوا بإعطاء "التأكيد" وهو يعني في نظرهم أعظم من القسم العادي.

فأجابه الكواكري بلهجة التأكيد: إنني أؤكد لكم أنني أقتني أملاكًا في وست – تشستر يوازي ثمنها أضعاف ما ذكرتم !..

وكان جواب مدير الأمن: لا تنتخب إلا بالقسم على الكتاب المقدس.

وقام جدل عنيف بين أصدقاء السيد موريس بهذا الصدد، فتقدم مرشح حزب الشعب بذاته من مدير الأمن وقال له: كيف نصر على هذا الطلب؟ ونحن نعلم أن القانون في إنكلترا وفي مقاطعة نيويورك، قد أذن للكواكريين باتباع طريقة التأكيد بدلًا من القسم، وإنني شخصيًا على علمٍ تامٍ بهذا القانون، وطبقته مدة ثماني عشرة سنة وأنا أمارس منصب قاضي قضاة المحكمة العليا.

وتقدم المحاميان السيد ألكسندر وزميله السيد سميث لمعارضة مدير الأمن واحتشد الناس حولهما لسماع رأييهما في هذه النقطة القانونية الهامة، وارتفع صوت سميث قائلًا: إن عدم السماح للكواكري بالتصويت هو عمل مخالف للقانون، واعتداء صارخ على حقوق الإنسان غير أن "الشريف" أصم أذنيه تمامًا.

وتساءل أحد أعضاء حزب الشعب: ومن هو هذا الشريف؟ وقال غيره: إنني لم أر له وجهًا أبدًا.

وسرعان ما علم زينجر أن مدير الأمن هذا هو رجل غريب لم يقطن "وست – تشستر" قط .. والقانون والعرف يقولان بأنه لا يجوز لأي

شخص أن يشغل منصب "الشريف" إلا إذا كان يقتني أملاكًا في المقاطعة وقد أقام فيها فترة من الزمن .

دفع السيد ألكسندر قبعته المثلثة الأطراف إلى الخلف وهتف قائلا: يلوح لي أن الحاكم جوسي قد عين هذا الشريف ليسير بالانتخابات في هذا الطريق !..

وكان دلانسي قاضي القضاة الجديد يصغي إلى هذا الجدل كله ملتزمًا الصمت التام، والمفروض فيه أن يكون عالمًا بالقوانين أيضًا، أما القاضي فيليب فقد انتخب منذ سنوات عضوًا في المجلس التشريعي طبقًا للقوانين المرعية في البلاد، وليست قضية الكواكريين مجهولة لديه، لكنه هو الآخر أصم أذنيه وراح يتجول هنا وهناك مشوش الفكر.

وهكذا عمد "الشريف" إلى رفض أصوات الكواكريين الواحد تلو زميله، حتى بلغ عددهم ثمانية وثلاثين شخصًا، فاضطرب أعضاء حزب الشعب وضجوا وأعلنوا سخطهم علنًا، وتأخر موعد إذاعة نتائج الانتخابات تسع ساعات بسبب مماطلات مدير الأمن، وأسدل الظلام ستاره وأضيئت المشاعل وأنيرت الفوانيس، وانتشرت النجوم في السماء، وفي تمام الساعة الحادية عشرة ليلًا أعلنت النتائج فكانت **231** صوتًا لموريس و**151** صوتًا لخصمه فورستر، وكان التعب باديًا على وجوه الجميع حتى أن الشريف ذاته كان

زائغ البصر، ومع ذلك كان يقول : هل بقي من لم يعط صوته بعد؟

ثم التفت مدير الأمن بوجهه الشرس صوب السيد موريس وقال له: لقد تم انتخابك وأرجو لك المسرّة !..

وارتفعت الهتافات من جانب أعضاء حزب الشعب، وارتسمت ابتسامة كاملة على شفتي زينجر، لعلمه أن نشر قصة الانتخابات فضيحة كبرى بحد ذاتها، وأن الحاكم جوسي سيثور من الغيظ والحقد.

الفصل الثالث عشر

محك السلطة في المدينة

عقد بيتر في اليوم التالي للحملة الانتخابية جلسة عائلية، وأخذ يروي لزوجته وأولاده منفعلًا حوادث "الشريف" ودسائس حزب المحكمة، بينما كانت حامية الساحل تطلق مدافعها احتفاءً بعيد ميلاد الملك، وكان أكثر أفراد الأسرة إلحاحًا في الأسئلة كاترين وابنها جون البالغ من العمر عشر سنوات.

وجلس الطباع إلى خوانه ليكتب قصة الانتخابات، فلم يدر كيف يبدأها وبعد لحظات قدم ريشة الطير إلى زوجته وسألها أن تكتب، فجلست إلى الخوان لتكتب في الموضوع وقالت: "سنطلع شعب نيويورك كافة على ضروب الخداع التي لجأ إليها "شريف" الحاكم ولن يثنينا عن ذلك شيء حتى لو اقتضى الأمر بذل أرواحنا !..

وأخذت تكتب وأمارات العزيمة بادية على محياها الجميل، فانقضى عصر ذلك اليوم والليل كله وهي تنمق المقال، وتغتنم الفرصة بين حين وحين لتغذية طفلتها الرضيعة "إيفرت" .

وفي صبيحة اليوم التالي تلت المقالة على زوجها، فأخذته الدهشة لبساطته ووضوحه، وعمدا معًا إلى حذف جميع العبارات التي تحمل آراءً شخصية تاركين الوقائع تتحدث عن نفسها.

ودلف إلى المطبعة السيد ألكسندر مسرعًا وهو يحمل رزمة في يده، وكان وجهه المستطيل مرحًا أكثر من أي وقت مضى، وسار وراءه شخص غريب قوي البنية، وهو العامل الطباع المساعد، وقد دلت ضفيرته الطبيعية " وهي مثل ضفيرة زينجر" على أنه من العمال، وقال السيد ألكسندر مغتبطًا: لقد أحضرت لك العامل المساعد في الوقت المناسب ، أنستطيع طبع العدد الأول من صحيفتنا يوم الإثنين ؟ فأجابه زينجر بثبات : أجل نستطيع ذلك إذا توفرت لنا المقالات اللازمة.

فتح السيد ألكسندر الرزمة التي يحملها وإذا بها كلها مقالات حررها الأصدقاء، وسلموها للسيد ألكسندر، بوصفه رئيس تحرير الصحيفة، فسر زينجر لهذه المفاجأة ، وأحس باعتزاز لأنه يعمل مع شخصيات لها وزنها في البلاد، ثم بسط السيد ألكسندر صحيفة مخطوطة وقال: سنبدأ بهذا المقال، وهو موعظة في الحكمة كتبها واعظ صديق.

فعلقت السيدة زينجر على ذلك بقولها: جميل جدًا والموعظة هذه بمثابة صرخة قوية بأن ما ينقص صحف نيويورك هو الحكمة !..

ابتسم السيد ألكسندر ووضع على الخوان قصيدة وقال: وسننشر هذه القصيدة في العدد الأول أيضًا لنثبت للقراء أن صحيفتنا هي صحيفة متعة فكرية وليست مادة للتثاؤب !..

وأضاف قائلًا: وهذه الصحيفة اللندنية وبعض الرسائل من أصدقائي في إنكلترا، فعلينا أن نجد شخصًا يختار منها المواد الدسمة، أو أن يعيد تحرير بعض أجزائها لتشغل المكان المخصص لها في الصحيفة.

قال زينجر: بميسور زوجتي أن تقوم بهذا العمل، فقال رئيس التحرير: سأكون جد ممتن لو حاولت يا سيدتي القيام بهذه المهمة، وسأتحدث إليك بصدد المواضيع التي تهمنا أكثر من غيرها، ولربما تمكنت زوجتي من مساعدتك في هذا العمل في ساعات فراغها من أعباء العمل في الحانوت..

وقدمت له السيدة زينجر بخجل المقال الذي كتبته بصدد الحملة الانتخابية، فهتف قائلًا: واه.. هذا ما كنت أود التحدث إليكما بشأنه.. فلنقرأه.. وجلس إلى الخوان وطلب ريشة الطير ودواة الحبر.

وخرج زينجر في هذه الآونة مع العامل الطباع المساعد، وتجول معه في أرجاء المطبعة، وتفحصا الآلة الطابعة، وكان العامل يتحدث عنها بلهجة الرجل الخبير الواثق من نفسه.

ثم تطلع السيد ألكسندر إلى ساعته وقال: على أن أسرع بالذهاب.. أما المقال هذا فجيد ولا ريب يا سيدة زينجر.. ولم أغير فيه إلا الشيء

القليل جداً.. ، ويلوح لي أنني استطيع الاعتماد عليك في تحرير الأنباء الخارجية.. ، وما رأيكما في العبارة الموجهة التي سنتوج بها الصحيفة؟..

فأجابته كاترين فخورة: سنقلد العبارة التي توج بها السيد فرانكلين صحيفته وهذا هو نصها: "غازيت بنسلفانيا، تتضمن أحدث الأنباء الخارجية والداخلية".. وأضافت كاترين قائلة: وما دام السيد برادفورد يستعمل كلمة "غازيت" في صحيفته فأقترح أن تحمل صحيفتنا هذه العبارة: "جورنال نيويورك، يتضمن أحدث الأنباء الداخلية والخارجية".

وعلق زينجر على ذلك بقوله: نسميها "جورنال" لأنها ستكون بمثابة يوميات من حياة المدينة.

فأجابهما السيد ألكسندر متأملاً: هذه فكرة جيدة.. غير أن "جورنال" هي كلمة فرنسية، وتعني "اليومي" وصحيفتنا ستكون أسبوعية؟..

ابتسم زينجر وقال: فلنطلق عليها إذن اسم "الجورنال الأسبوعي".

واتفقوا جميعاً على تقليد صحيفة بنيامين فرانكلين في العبارة المتوجة، وترتيب المقالات، والاشتراك، والسعر، حتى وفي الأحرف التي يستعملها في صحيفته.

وما أن أزفت الساعة الخامسة حتى أخذت المدفعية تقصف، فهرع جون بن بيتر إلى الشارع، وعاد بعد لحظات ليقول: الناس كلهم يتجهون لشارع برواد لأمر هام!..

واستمر قصف المدفعية.. وأسرعت أسرة زينجر لتستطلع الخبر، وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسها مطوقة من الجماهير.. وعلمت أن السفن التجارية الرابطة في الميناء تطلق مدافعها بالقرب من مقر الحاكم جوسي احتفاء بالقاضي السابق موريس الفائز في انتخابات وست – تشتر.

كانت الجماهير، وعلى رأسها بعض التجار البارزين، محتشدة عند الرصيف ترحب بالسيد موريس وهو يترل من السفينة، التي أعادته من منطقة وست – تشتر.. وقد نظم حزب الشعب استعراضاً فخماً على شرفه.. فأثر هذا المشهد في زينجر وانضم إلى العرض، تاركاً أسرته تراقبه من بعيد، وحيا الجماهير، وسار إلى جانب أصدقائه.. كان القاضي موريس يسير في الطليعة، وهو رجل نحيل، أنيق، مشهور في المدينة.. وكان ابنه لويس موريس الشاب، يسير خلفه مع فريق من الأعيان.. فالأب والابن هما الآن عضوان في المجلس التشريعي، وبوسعهما النضال جنباً إلى جنب.. ولما وقعت أنظار الناس على القاضي السابق، حيوه بحرارة ومرح وتعالت هتافاتهم.

واتجه القوم بالسيد موريس إلى "حانة الحصان الأسود"، حيث أقيمت على شرفه مأدبة غداء فخمة.. وقد زينت قاعة الاستقبال بلوحة كبيرة علقت على الجدار في الصدر، كتبت عليها العبارة التالية: "أيها الملك جورج.. نريد الحرية والقانون!".

الفصل الرابع عشر

صحيفة زينجر

تجمع الناس في فجر يوم الإثنين أمام مطبعة زينجر، وأصواهم تتعالى في طلب نسختهم من "جورنال نيويورك الأسبوعي"، فالشائعات قد سبقت ظهور الصحيفة تردد القول بأها ستتضمن أنباء يحجم مستر برادفورد عن نشرها،

وما أن حانت الساعة التاسعة صباحاً حتى نفدت الطبعة الأولى.. وكان جمع من الناس يقدر بمائة شخص يرابط عند باب المطبعة في طلب المزيد.

وشمر زينجر ومساعده عن ذراعيهما، وراحا يعملان على الآلة الطابعة بجد ونشاط، وكان جون زينجر وله من العمر عشر سنوات، وبيتر زينجر وله من العمر ثماني سنوات يمدان يد المعونة لأبيهما في إحضار الحبر، والورق وطي الصحائف المطبوعة.

أما كاترين فكانت منهمكة تماماً في تسجيل أسماء المشتركين، وقبض ثلاث شلنات من كل مشترك، لقاء الربع الأول من السنة.

ولما صدرت الطبعة الثانية قمافت الناس على استلام نسخهم، وكان منهم من يقرأها بصوتٍ عالٍ لزملائه، ومنهم من عمد إلى طيّها بسرعة،

وأخفاها في جيبه وابتعد على عجل.. ، فأدركت كاترين على الفور أن هؤلاء الأشخاص هم من مؤيدي حزب المحكمة، وقد أرادوا الاطلاع على الصحيفة على انفراد.

وكلما دفعت المطبعة كميات جديدة من الصحيفة زادت الضجة في الشارع.. ولم يعر القراء أدنى انتباه إلى الأخطاء الطفيفة التي وقعت في الصحيفة.. ، وكان زينجر قد بلغ درجة من الانفعال حتى أنه طبع عبارة "الخامس من أكتوبر (تشرين الأول) سنة 1733"، بدلاً من "الخامس من نوفمبر (تشرين ثاني) سنة 1733".. ثم إنه طبع كلمة **Agoin** بدلاً من **Against** و **Teusday** بدلاً من **Tuesday** وغيرها من الأخطاء المطبعية.

كان الناس يركضون في الشوارع والصحيفة في أيديهم، يعرضونها على أصدقائهم.. وهي مثل صحيفة برادفورد مؤلفة من أربع صفحات، بحجم سبع بوصات ونصف في 12 بوصة.. ، وقد تحدثت كاترين في هذا العدد الأول عن قصة انتخابات "وست – تشتر" ، مشيرة إلى "الشريف" واعتدائه الصارخ على حقوق الكواكريين في الانتخابات.

وما أن حل المساء حتى كانت المطبعة تصدر الطبعة الثالثة من الصحيفة.. وفي ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن ذهب العامل المساعد إلى بيته، وصعدت أسرة زينجر إلى الطابق العلوي من البيت، وقف الطبّاع والشمعة في يده، يلقي حواليه نظرة فاحصة والسرور يغمر

نفسه.. ، لقد كان يحس أنه قدم شيئاً لمدينة نيويورك.. وأن دخله قد ارتفع – في يوم – إلى درجة لم يعهدها في حياته قط.. ، غير أنه في هذا الوقت ذاته أصبح معرضاً للأخطار أكثر من أي وقت مضى.

وطرق طارق باب بيته في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فاضطرب خاطره لأن نيويورك كانت مدينة هادئة، ويندر أن يتجول أحد من الناس في شوارعها بعد الساعة العاشرة ليلاً.. ، وطرق الباب ثانية، فأثبت بيتر الشمعة، وأمسك قضيباً ثقيلاً بيده اليمنى، وفتح الباب بيده اليسرى فإذا به يقف أمام السيد برادفورد وجهاً لوجه.

ودلف الطباع القديم، وهو في السبعين من عمره، إلى مطبعة زينجر مسرعاً، ممسكاً بيده نسخة من "الجورنال الأسبوعي" وقال: لقد جئتك يا بني لأقصّ عليك قصة شبابي التي كانت حتى الآن سراً خفياً، غير أنني أرويها لك محذراً.

وأشار الشيخ برادفورد إلى الصحيفة وتابع كلامه قائلاً: يتضح مما نشرته أنت في هذه الصحيفة، أنك تتهم حاكمنا الملكي بقبول رشوة وقدرها مائة "بستولس".. وأنك تتهم "الشريف" باللجوء إلى أساليب الغش في الحملة الانتخابية، وأنت تعلم أن الحاكم هو الذي يعين الشريف ويعزله من منصبه، لأنه يمثله في المنطقة.. فأصغ إلي...

وجلس طباع الملك على مقعد طويل إلى جانب خوان المحاسبة، وقال: لقد تصادفت لما كنت في الثلاثين من عمري – أي قبل أن تولد أنت بخمس سنوات – مع جورج كيث من فيلادلفيا، وكان هذا الرجل

زعيماً كواكرياً مثل ويليام بن، وحاولت مع كيث وضع حد للمذهب الكواكري.. ، لقد مللنا حياة الشبع الدينية، وأردنا أن نرى الكنائس المسيحية كلها موحدة.. فهل في هذه الرغبة من خطأ؟.. وأصدرنا كتيباً هاجمنا فيه ويليام والحاكم فلتشر، هاجمنا كل شخص لا يقول بما نقول..

كنت وقتئذ فتياً أفيض بالحماسة، ولكي أختصر قصتي الطويلة أقول سرعان ما وجدت نفسي رهين السجن، وقد وضع "الشريف" يده على المطبعة، والورق، وجميع مستلزمات الطباعة، ثم مثلت أمام القضاة والمحلفين، ولم يكن هناك من يدافع عني، فدافعت عن نفسي بنفسي، وناقشت الشهود، وأجبت على تهم النيابة.

فسأله بيتر منفعلاً: وما الذي قرره المحلفون؟.. قال: لقد تناقشوا في أمري خلال يومين كاملين، وكانت كلمتهم تبرئتي من تهمة التحريض.. فأطلق القاضي سراحي، ثم استدعاني السيد فلتشر حاكم بنسلفانيا، وألقى على مسامعي نصائح رصينة أبوية.. ولما وعدته بتحسين مسلكي في المستقبل عينني طباع الملك في نيويورك!..

فسأله بيتر: وما هو العقاب الذي كان ينتظرك لو أدانك المحلفون؟..

فأجابه السيد برادفورد بلهجة ناعمة: لو أدانني المحلفون لعمدت السلطة التنفيذية إلى قطع أذني، ولساقني الجلاد عبر الشوارع إلى المشنقة وهو يلهب ظهري بالسوط!.. ونهض برادفورد متجهاً صوب الباب وقال: إنني أروي لك هذه القصة على سبيل التحذير فقط.. أسعدت مساء يا بني!..

الفصل الخامس عشر

الملاحون الثلاثة السكارى

كان الصدى الأول لصدور صحيفة زينجر أن عين الحاكم جوسي القاضي فرانسيس هاريسون للإشراف على تحرير صحيفة السيد برادفورد.. ، وكان الطباع الشاب يرقب هاريسون وهو يسير في الشوارع بقبعته المذهبة، وبكميه الطويلين المحليين بالتخريمات،

محاولاً تغطية ضآلته وإظهار نفسه بمظاهر الفخفخة والترف.. ويتحدث الناس عنه كراقص رشيق، ومغازل لبق يحوم دائماً حول زوجة الحاكم جوسي.

وما من ريب في أن السيد برادفورد تضجر من وجود هاريسون هذا على رأس تحرير "نيويورك غازيت" ، ولم ينس أنه هدده في يوم من الأيام بتعطيلها.. لكنه رضخ للأمر الواقع بوصفه طبّاع الملك، يتقاضي خمسين جنيهاً كل سنة ثمناً لخضوعه وولائه.. ، ولأنه محب للمال ويؤثره على أي اعتبارات أخرى.

تصفح زينجر "الغازيت" باحثاً عن التهديدات التي يوجهها إليه القاضي هاريسون، إلا أنه لم يعثر على شيء منها، وإنما وجد الصحيفة كلها تشيد بمحامد جوسي وتنعته بالحاكم النبيل العادل.. ، فجعد زينجر

صحيفة "الغازيت" بيديه الضخمتين.. وهو يسائل نفسه: ما الذي يخفيه القاضي هاريسون من وراء صمته هذا؟..

وتابعت "الجورنال" صدورها أسبوعياً وهي على ما هي عليه من الشدة في قول الحق.. وتحدثت عن الحكام دون تخصيص وقالت: وهناك من الحكام من يخطئون، ويسيئون السلوك، وينقلبون إلى أئمة طغاة".

ولم يحصر زينجر همه في الأبحاث الجدية فحسب، بل كان يتطرق إلى المفاكهة أيضاً، فقد وصف ذات مرة مخلوقاً عجيباً كبيراً يبلغ من الطول خمسة أقدام، وخمس بوصات.. واسمه "ف ... ه" .. فأدرك القراء أنه يقصد بهذا المخلوق القاضي فرانسيس هاريسون بالذات.

كان الناس في نيويورك بأسرها يطالعون "الجورنال" بأعين محملقة من الدهشة.. إذ لم يسبق لهم أن طالعوا مثل هذه الأقوال الجريئة.. ، حتى أن زينجر نفسه لم يكن ليعرف دائماً من هم كتاب هذه المقالات، بداعي أن ألكسندر كان يجمعها من أصدقائه ويدفعها إلى المطبعة بلا توقيع.. ، وطاف زينجر في المدينة فوجد الناس في الحانات يتحدثون عن "الجورنال" ومنهم من يرحب ويبدي اغتباطه بمواضيعها، ومنهم من يجاهر بمقته لها ويطالب بشنق طابعها.

وجلس الحاكم جوسي في إحدى غرف العمارة الداكنة الضخمة، يقلب النظر في "الجورنال".. ولما كان هذا الرجل قليل الثقافة والمطالعة، فقد تعذر عليه فهم كل شيء مدون في الصحيفة.. لكنه أحس أن هناك

من يهاجمه.. فمن يكون هذا الشخص؟.. ومن الذي يمول هذه الصحيفة البغيضة؟.. فالاسم الوحيد الذي تحمله هو اسم الطباع زينجر، لكنه رجل فقير الحال وليس بميسوره تحريرها والإنفاق عليها بمفرده.

واشتبه جوسي على الفور بصانع السفن ريب فان دام، الذي لا يزال يصر على عدم دفع تسعمائة جنية، أي نصف راتبه خلال المدة التي كان فيها حاكمًا بالوكالة، فلعله هو الذي يمول "الجورنال"؟..

فألقى الحاكم الصحيفة أرضاً، وداس عليها بقدميه وأقسم بأن يعمل على تدمير فان دام مالياً واقتصادياً، وبذلك تتوقف الصحيفة عن الصدور.

وأعمل فكرة في الطريقة التي سيتبعها لتحقيق خطته الجهنمية.. ، فلقد سبق له واستدعى فان دام إلى المحكمة مرات عديدة، حتى سئم الهولندي الشيخ هذه الدعوات وصار يلقي بها عرض الحائط، فلاحت لجوسي فكرة جديدة وهي اللجوء إلى مساعدة النائب العام السيد برادلي.

واتفقا معاً على الادعاء بأن فان دام مجهول الإقامة، وأنه فار من وجه العدالة.. فإذا ما أخذت المحكمة بهذه الادعاءات، تمكنا من طلب الحجز على أملاكه كافة بما فيها عدد من السفن، وبعض بيوته، وحوض تصليح السفن، ومسرحه الجديد.. إلا أن أهم شيء يطلب لتحقيق المؤامرة، هو إيجاد الشهود الذين سيوقعون الادعاء.

وأخيراً اهتدى الحاكم جوسي إلى السبيل الذي سيوصله إلى ما يريد.. ففي ليل العاشر من (يناير) كانون الثاني سنة **1734** م ، دلف رجل فقير متسكع إلى حانة تقع على رصيف الميناء، وتحدث إلى صاحبة الحانة السيدة هاوكينس، وأخذ يتملق السيدة كثيراً، ويبتسم لها بحيث غدا فمه الرقيق الأحمر وكأنه ندبة دامية في وجهه!.. وقال لها: بودي رؤية زميلي بيللي سبينكس، وبيلي فيرن، فهما يقيمان عندك، فهل تتلطفين وتخبريهما بأن صديقهما مارش في انتظارهما.. ، صديقهما الملاح الذي كان يعمل معهما في سفينة الحاكم جوسي "سي فورث"..

وما هي إلا لحظات حتى أقبل سبينكس وفيرن على زميلهما القديم ورحبا به كثيراً.. ، وسبينكس هذا الرجل إنكليزي قصير القمة عصي المزاج، وهو من الناس الذين يحشرون أنوفهم فيما لا يعنيهم، ويبحثون عن المشاكسات حيثما كانت، ويسهمون في زمالة الكأس، ويتصادقون مع المغلوب في المعركة إذا ما أثبت لهم أنه قاتل قتالاً عنيداً.

وربت سبينكس على كتف مارش ودعاه إلى احتساء كأس من الخمر، فرد عليه مارش قائلاً: كلا.. كلا.. إنني أتكفل هذه الليلة بنفقات المشروب!..

فضحك سبينكس لعلمه أن مارش كان عاطلاً عن العمل منذ أن سرق زيت القطران من السفينة وباعه إكراماً لخاطر بنت الكرمة.

أما فيرن فهو ملاح بدين، ويتعمد الظهور بمظهر الظرف واللطافة وعلى الجملة إنه يبدو طيب الخلق وهو في حالة الصحو، أما إذا سكر فتزداد طيبة خلقه عشرة أضعاف مما هي عليه .

ووقف الملاحان إلى جانب الملاح مارش الفقير الحال، وهما يشعران بالتعالي عليه، وكان شعرهما الطويل منعقدًا على شكل ضفيرتين مدهونتين بالقطران، وراحا يمعنان النظر في مارش، وقد وضعا أيديهما في جيوب سرواليهما المصنوعين من الكتان الأبيض، في حين كانت أكتافهما تتراقص تحت سترتيهما المصنوعتين من الكتان الأزرق.

فقال لهما صديقهما المتدثر بالأسمال محتجًا: ألا تصدقاني؟ ووضع يده في جيبه وأخرج حفنة من القطع الفضية، وقلبها تحت نور المصباح، لكنه لم يقل لهما من أين أتى بهذه النقود.

وبعد ساعات كان البحارة الثلاثة في حالة شديدة من السكر، فكفوا عن الغناء إلا ما ندر، وتراءى لمارش أن الفرصة قد حانت لمفاتحة زميله في الموضوع وقال: لدي ورقة لها علاقة بالهولندي الشيخ أتعرفونه؟ فما اسمه؟ أجل هو فان دام ويقولون عنه أنه قد جن ..

فقال فيرن: ماذا تقول من الذي اختل عقله؟ فأجابه مارش : هو الهولندي إنه يخلط في كلامه، فهز سبينكس أصبعه محذرًا وقال: اصمت أي قول تقوله لو تناولت كمية أخرى من الويسكي؟ .

وتابع مارش كلامه قائلًا: لقد استلمت ورقة لها مساس به وأنتما صديقاي، وأثق بكما ثقة عمياء ، فهلا تلطفتما بالتوقيع على هذه الورقة؟..

فأجابه فيرن وهو يهز رأسه : صه وإلا شنقوك !..

قال مارش محتجًا: ليس في ما أطلبه أي ضرر لنا، وأقسم لزميليه الأيمان المغلظة بأنه لا يريد بهما شرًا.

غير أن سبينكس لم يرتح لهذه الفكرة، وسدد نظره إلى مارش وقال: إننا لا نفعل شيئًا دون إرادة رباننا يعيش الربان يا !

فأجابه فيرن: يعيش ربان السفينة "سي فورث" وإنني سأحطم رأس كل من يخالفني في ندائي هذا

فهدأ مارش من روعيهما، وأكد لهما أن الربّان مطلع على مضمون هذه الورقة وأنه – والحاكم معه – سيكونان ممتنين لو وقعتما عليها، قال سبينكس: لقد اختلف الوضع الآن، هات هذه الورقة، أرني إياها ..

فأخرج مارش ورقة مطوية من جيبه، ووضعها على الطاولة ووضع يده القذرة عليها ..

تساءل سبينكس: ما الذي تعنيه هذه الورقة ؟ أجاب مارش: لا شيء إنها سخف قانوني، إنها لا تعني شيئًا ، ورفع يده عن الورقة قليلا وقرأ بضع كلمات تقول: "والشخص المذكور هنا مجهول الإقامة" ثم تابع

مارش كلامه قائلًا: فما عليكما إلا أن توقعا على هذه الورقة، ولكي أثبت لكما حسن نيتي فإنني موقعها قبلكما، هيا وقعا في إثري ، واستدعى مارش صاحبة الحانة وطلب منها ريشة وحبرًا ..

ووقع الملاحون الثلاثة الوثيقة وافترقوا، ولما كان عصر اليوم التالي جلس سبينكس وفيرن عند براميل القطران، القائمة على رصيف الميناء يرقبان تساقط الثلوج فقال الأول لزميله: الحق يقال إنني غير مرتاح لقصة مارش هذه، فمن الذي أعطاه هذه القطع النقدية ولماذا؟ ..

فأجابه فيرن: إنني أشاطرك هذا الشعور بالريبة وأحس وكأن هذه الورقة التي وقعناها تنطوي على سم ..

وتساءل سبينكس: ما الذي تتضمنه تلك الورقة؟ ألا ترى أن نندفع في إثر مارش ونطلب منه حذف اسمينا؟

وراحا يبحثان عنه في كل مكان فلم يعثرا عليه، وعرجا في طريقهما على بيت الربان الواقع في شارع برواد، فالتقيا الزنجي الخادم وهو يرفع الثلج من عند الباب فسأله سبينكس: أتعرف شيئًا يا قيصر عن ورقة مارش، أحقًا ما قاله لنا أن الربان مطلع على مضمون تلك الورقة القانونية التي وقعناها؟ ..

فأجابه الزنجي بعد قليل من التأمل: إنني لم أر لمارش وجهًا منذ أمد طويل، ولا أعلم شيئًا عن هذه الورقة التي تتحدثان عنها ، لكنني أعدكما بالبحث عن حقيقتها ..

وبعد يومين جاء إلى حانة السيد هاوكينس جندي وقابل سبينكس وفيرن، وسألهما إذا كانا هما قد وقعا على طلب لاعتقال السيد فان دام رئيس مجلة صاحب الجلالة؟ ..

صاح سبينكس قائلًا: الويل لهذا الخنزير مارش، لقد وقعنا في الفخ، يا له من وغد، وأخذ يحتسي البيرة مع زميليه وهو يرغي ويزبد، وزميله لا يقل عنه حنقًا وثورة.

وبينما هما في هذه الحال من القلق جاء الزنجي قيصر وقال لهما ضاحكًا: يلوح للربان أنكما في مأزق حرج، فهو يريد مقابلتكما على عجل !..

قال سبينكس: وهل من جديد ؟ .. فأجابه الزنجي وهو يسير أمامهما: هلما إلى الربان ومنه ستعلمان الخبر اليقين.

وتوجه الثلاثة إلى بيت الربان روبرت لونغ، وهو الذي أقام مأدبة فخمة في سفينته الحربية "سي فورث" على شرف الحاكم جوسي، في اليوم الذي أجريت فيه انتخابات وست – تشستر .. والمعروف عن لونغ هذا أنه رجل طيب واجتماعي، وقد أنشأ رصيفًا في الميناء على نفقته الخاصة، وكان مواليًا لجوسي لاعتقاده أنه نبيل وجنتلمان.

ودلف الملاحان إلى بيت لونغ الأنيق، فاستقبلهما صائحًا قائلًا: أخبراني ما هي الخطط التي رسمتماها مع هذا الشقي مارش؟ ..

وأخذا يرويان لربانهما قصة مارش، وحفنة القطع الفضية والويسكي والورقة، فامتقع وجه الربان، وإذا ما حنق ربان سفينة حربية فعلى بحارتها أن يرتعدوا فرقًا، وأجابهما وهو يرتجف من الغضب: إنني لم أسمع بقصة هذه الورقة أبدًا أأنتما معتوهان؟ فالمجانين والحمقى فقط يوقعان على وثيقة تطلب اعتقال السيد فان دام، هيا أسرعا إلى كاتب العدل وقولا له إنني أرسلتكما إليه، قصا عليه القصة كلها، واسألاه أن يدونها ووقعاها أمامه، وليرسل من تصريحكما هذا نسخة إلى السيد فان دام.

فتلمس الملاحان قبعتيهما وقالا: تأمر يا سيدي، وهرعا إلى الخارج وكلهما غبطة لأن الربان لم يقرعهما بالسوط ذي الأذناب السبعة.

الفصل السادس عشر

هيئة المحلفين بكاملها

حضر فان دام الشيخ إلى مطبعة زينجر وهو يرتعش من الغضب، وفي يده إقرارين معززين باليمين أحدهما موقع باسم وليام سبينكس، والثاني موقع باسم وليام فيرن، وكلاهما مصدق بتوقيع كاتب العدل.

وطالعت كاترين هذين الإقرارين وهي تلهث من الدهشة، أما زينجر فكان وقتئذٍ يتجول في أروقة المحكمة العليا للاطلاع على أنباء قيل له أنها هامة جدًا، وشاهد الطبّاع هناك حشدًا من الناس يحتلون مقاعد المحكمة، وقد أخذته الحيرة حين دخل القاعة ورأى الأنظار تتجه إليه، وسمع بعض الحضور يتساءلون عنه فحيره هذا الأمر وجلس في حركة سريعة.

والتأمت هيئة المحلفين وعددها تسعة عشر نيويوركيًا ، وهم الذين اختارهم "الشريف" من الجداول الانتخابية ومن بينهم ثلاثة تجار موسرين، فاتخذ هؤلاء السادة أماكنهم بانتظار النائب العام، أو القاضي ليدلي لهم بتهمة موجهة ضد أحد من الناس، وكان زينجر يجهل من يكون هذا المتهم، فإذا ما وافقت هيئة المحلفين بأغلبيتها على توجيه التهمة ضد الشخص المعني، احتجز على الفور وقدم للمحاكمة، وتساءل زينجر: من يكون هذا المتهم يا ترى ! ..

ودعا كاتب المحكمة الحضور إلى الوقوف فدخلها قاضيان بخيلاء وهدوء، واحتلا مقعديهما على المنصة، وكانت العادة أن يكونوا ثلاثة قضاة، غير أن الحاكم جوسي أنقصها إلى اثنين بشكل تعسفي، بعد أن عزل السيد موريس من منصبه في المحكمة، وقضاة نيويورك لا يضعون على رؤوسهم الضفائر، ولا يلبسون ثوب المحاكم الإنكليزية، وكلنهم يظهرون بمظهر المهابة والعظمة، فيسير كتاب المحكمة أمامهم وهم يحملون الكتب القانونية، ويتبعهم القضاة الواحد في إثر زميله وهم يرفلون بالثياب الحريرية المزركشة، والمجلاة بالشرائط المقصبة وبالأزرار الذهبية.

أما القاضي دلانسي وهو لا يزال في شرخ الشباب، فدخل القاعة ممتقع الوجه متوتر الأعصاب، مثلما كان في انتخابات وست – تشستر ، وأخذ مكانه في كرسي قاضي القضاة، وأنصت إلى العبث بالأوراق الموضوعة أمامه، في حين توجه الكاتب إلى منصة المحلفين، وسألهم أن يقسموا اليمين على الكتب المقدسة بأنهم سيصدرون حكما صحيحًا عادلًا.

وسدد زينجر أنظاره إلى رئيس القضاة الجديد، مراقبًا مسلكه بدقة تامة، لأنه من أعوان الحاكم جوسي يأتمرون بأوامره، ولأنه في الوقت ذاته زعيم حزب المحكمة، ودلانسي هذا هو ابن أغنى تجار المدينة، درس في جامعة كمبريدج وقد تصادق مع أستاذه فيها، ثم أصبح هذا الأستاذ فيما بعد رئيسًا لأساقفة كنتربري، ودلانسي شاب فطن، لم يجد مشقة في

إنجاز دروسه، فبعد أن أنهى الجامعة درس القانون سنة واحدة في لندن ثم أصبح محاميًا.

ولما عاد إلى نيويورك كانت فطنته وأمواله عونًا له في شق طريقه قدمًا، فاقترن بابنة سياسي ثري، وشيد لنفسه بيتًا فخمًا في " برودواي" بالقرب من كنيسة ترينيتي.

وبعد أن أقسم المحلفون اليمين، قال لهم دلانسي بلهجة لا تخلو من شدة وإجهاد: لا ريب بأنكم علمتم أن هناك بعض المطبوعات قد صدرت مؤخرًا وهي ترمي إلى تنفير سكان هذه المقاطعة من الحاكم الجديد، الذي عينه صاحب الجلالة وفقًا لإرادته القائلة بأن هذا الحاكم إنما يصلح لهذه البلاد ..

فاهتز زينجر حين سمع هذا الكلام، كأنه أصيب بضربة عصا على رأسه، فهو الطباع الوحيد الذي تهاجم مطبوعاته الحاكم جوسي.

وتابع القاضي كلامه للمحلفين قائلًا: وهناك أناس يلصقون بصاحب السعادة التهم الملفقة المؤذية لسمعته، وهم ذاتهم ينشرون في الخارج الكثير من الطعون المحرضة بحق الحاكم، بقصد التقليل من هيبته وجعله مضغة في الأفواه.

وما أن سمع زينجر عبارة "الطعون المحرضة" حتى أحس بموجة باردة تغمر وجهه، وتعقبها موجة حارة، فلو ثبت للمحلفين أنه نشر في صحيفته "طعنًا" بحق الحاكم فسيكون حبل المشنقة عقابه الأوحد.

وتابع القاضي قوله: أما محررو تلك المقالات، فلا يزالون مجهولين على وجه التأكيد، لكنهم يستغلون اسم السيد فان دام ليحظوا بعطف الجمهور عليهم.

وتحدث القاضي دلانسي إلى المحلفين مدة نصف ساعة، وهو يرغي ويزبد من الغضب قائلًا إن حرية الطباعة خطر على الأمن العام، وختم كلامه قائلًا: إنني أعرف معظمكم شخصيًا " وفي هذا الكلام ما يشبه التهديد" ولا أرتاب في أنكم ستقومون بواجبكم على أكمل وجه، وعليكم أن تروا من مِن الاثنين ستوجهون إليه التهمة أهو السيد فان دام أم زينجر؟ ..

وانسحب المحلفون إلى الغرفة الخاصة بهم وقضوا فيها طوال النهار، وكان زينجر في الساعات الأولى يجلس هادئًا مبتسمًا، ولما طال إعلان النتيجة بدأت ترتسم على محياه علائم الاضطراب والقلق.

وأعلن كاتب المحكمة أن المحلفين يرجئون متابعة النظر في هذه القضية إلى الليل، فأسرع زينجر إلى البيت، واستقبلته كاترين بالترحاب وأحاطته علمًا بقصة الملاحين السكارى، وبالمؤامرة التي حاكها جوسي ضد فان دام.

فقالوا لها بعد أن أتمت حديثها: سيضطرب نصف سكان المدينة عندما يطالعون إقرار هذين الملاحين وسأنشر إقراريهما في "الجورنال" إذا لم أزج في السجن.

وما أن طلع نهار اليوم التالي حتى توجه إلى قاعة المحكمة، ليعرف فيما إذا كان سيوقف أم لا، وأحس بالخطر يزحف نحوه زحفًا..

وتقدم رئيس المحلفين من القاضي دلانسي وقرار المحلفين بيده وقال: لقد قمنا بالمهمة التي عهدت إلينا بها يا صاحب السعادة، وإننا لنرجو من محكمتكم الموقرة أن تأذن لنا بنشر قرارنا هذا في الصحف.

فارتسمت على ثغر القاضي ابتسامة وقال: ستنظر المحكمة في طلبكم هذا.

وخيم الصمت على القاعة، والكل ينتظر النتيجة باهتمام زائد، أما زينجر فقد خيل له أن قلبه سيتوقف عن العمل فجأة.

وقال القاضي لرئيس المحلفين: بوسعك أن تواصل تلاوة القرار، وكان جواب رئيس المحلفين: قررنا بالإجماع عدم توجيه التهمة إلى أحد!..

فتمالك دلانسي أعصابه بمشقة زائدة، فالمحلفون خرجوا على إرادته وقال بصوتٍ متهدج: وعلى ذلك أقفل باب هذه القضية.

وانصرف المحلفون وظل زينجر واقفًا مشدوهًا، وانقشعت عن نفسه غمامة حالكة السواد، واحتشد الناس حوله مهنئين، وكانوا خليطًا من الأصدقاء والزبائن، وعرف في بعضهم أشخاصًا كانوا يرمقونه بنظرات الريبة حين دخل إلى قاعة المحكمة، فانقلبوا الآن إلى مرحبين به مهنئين له أيضًا ..

وتقدم منه أحد المحلفين وصافحه بحرارة وقال له همسًا: لقد كان فريق منا يميل إلى إدانتك، لكنه أذعن في نهاية الأمر إلى رأي الأغلبية، و لك الآن أن تتابع عملك في صحيفتك ونشرها !..

الفصل السابع عشر

مطبوعات زينجر توقف الحاكم عند حده

> جلست أسرة زينجر بعد أيام قلائل من حادث المحكمة تجلد كتيبًا للسيد فان دام، يتألف من ثماني وستين صفحة، وقد حرر قسمًا منه عن المحامي السيد ألكسندر، والعالم السيد سميث، وما تبقى منه حرره صانع السفن الشيخ باللغة الهولندية،

وترجمته أسرة زينجر إلى الإنكليزية بلهجة منزلية كليلة، ونشرت في صحيفتها "جورنال نيويورك" الأسبوعي إعلانًا هذا هو نصه " سنصدر قريبًا كتيبًا ونعرضه للبيع، ويتحدث هذا الكتيب عن التدابير القانونية التي يرتأي السيد فان دام اتخاذها، لمقاضاة صاحب السعادة وليام جوسي لأن الحاكم كما يعتقد فان دام، يعتدي على حقوق المحلفين؟ .. "

فمن الناس من ابتاع نسخًا وابتعد بها مسرعًا، ومنهم من جلس في المطبعة أو عند بابها يطالعها، أما نيكول سيجن زوج أخت كاترين، فقد جاء إلى المطبعة مبكرًا ليطالع نسخته بتؤدة، وليناقش الموضوع مع الزبائن.

وعلق رجل يجر العربة بيده على الكتيب بقوله: واه :: سيعتقل جوسي السيد فان دام .

فأجابته امرأة وهي تحمل على كتفيها دجاجتين مقيدتين قائلة: كلًا إنك على خطأ، فهيئة المحلفين سترفض إدانة الشيخ فان دام، الويل للحوت جوسي !..

وقال رجل وهو يرقص فرحًا: إن جوسي هذا يلجأ إلى الألاعيب، لقد استأجر ثلاثة ملاحين ليوقعوا على وثيقة ليتمكن بها من اعتقال فان دام، يا له من حوت، لا بد للناس أن يطلعوا على دسائسه هذه ..

وانتشرت الأخبار بسرعة في المدينة، واحتشد الناس في زوايا الشوارع وهم يقلبون صفحات الكتيب ويتحدثون همسًا وبأصوات غاضبة حانقة

فقال أحدهم: ما الفائدة من القانون إذا تمكن جوسي اعتمادًا على وثيقة الملاحين السكارى، من اعتقال فان دام وزجه في السجن بعد مصادرة أملاكه؟ ..

وقال غيره: فليحاولوا اعتقاله وسنجعل الدماء تسيل في شوارع نيويورك، وأول بيت سنقدمه طعمًا للنيران هو بيت القاضي دلانسي .

وأسرع السيد ألكسندر إلى المطبعة وهو يفرك يديه من الغضب، وأفسح له الناس الطريق، فتوقف بينهم قليلًا وقال: لقد رأيتم اليوم بأنفسكم ما الذي تعنيه سلطة الصحافة، فالمدينة كلها تتحدث بفضيحة الملاحين السكارى.

ودلف زعيم حزب الشعب إلى داخل المطبعة، فالتقى هنريك ميشيل كوك الموسيقي منحنيًا على المصرف، وهو يخاطب زينجر قائلًا: أصغ إلي يا بيتر زينجر، إذا كان بميسور صاحب السعادة الحاكم أن يتآمر على فان دام، وهو رجل خطير له صديقان محاميان مستعدان للدفاع عنه دائمًا، فما الذي يفعله بك أو بي إذا ما قلنا شيئًا لا يرضيه؟ أجبني ماذا سيحل بنا ونحن لا نستطيع توكيل محامٍ ليدافع عنّا؟ ..

كان الحاكم جوسي يجلس إلى الموقدة في قاعة الاستقبال الوثيرة، يلعب "الداما" مع ضابط من رجال حاميته، وقد وضع إلى جانب كأس من النبيذ كتيب فان دام، في حين كان كلبه السلوقي يحك رأسه الأحمر البرّاق على ركبتيه، أما الوقت فكان عصر يوم من أيام شهر كانون الثاني، والغيوم الثلجية الداكنة منعقدة في السماء، والشموع المشتعلة تتراقص في القاعة حول الحاكم.

وأعلن الجندي المرابط عند الباب قائلًا: صاحب الشرف الرفيع السيد جورج كلارك، عضو مجلس صاحب الجلالة يرغب في مقابلة صاحب السعادة الحاكم !..

فأجابه جوسي مغتبطًا: دعه يدخل ! اجلس يا جورج ألا تريد كأسًا من نبيذ الماديير ؟ ..

جلس السيد جورج على الكرسي الواسع مرتاحًا، وهو أعظم مالك للأراضي في مقاطعة نيويورك على الإطلاق، وقال: لا بأس بكأسٍ من

النبيذ، ووقع نظره على كتيب فان دام فانتفخت أوداجه وقال: يلوح لي أنك مهتم بكتيب فان دام، إنه كتيب سيء ولا شك!

فانتفض جوسي من هول المفاجأة، واختطف الكتيب وراح يتفحصه بعينيه البليدتين وقال: لم تتح لي الفرصة بعد للاطلاع علي مضمونه، والواقع أنه لم يطالعه لأنه شبه أمي، وهو بالتالي يجهل أن "الجورنال" يصدر صباح كل يوم إثنين وهو ينعته بالحاكم الآثم.

وأطلعه جورج كلارك على مضمون الكتيب قائلًا: لقد نشر السيد فان دام قصة الملاح مارش كلها، كما نشر الإقرارين الموقعين من الملاحين الآخرين.

تصاعد الدم إلى وجه الحاكم جوسي وقال: وكيف توصل فان دام إلى معرفة هذا الأمر؟ ..

فأجابه السيد كلارك بهدوئه المعهود: ويا ليت فان دام هو الشخص الوحيد المطلع على هذه القصة، وإنما سكان نيويورك جميعًا يلغطون بها، وروى للحاكم عبارات التهديد التي يتفوه بها الناس في زوايا الشوارع.

وجوسي لا يجهل أن الحاكم كونبري قد زج سنة **1709** م في غياهب السجون ، ولا يجهل أيضًا أن فان دام العنيد كان في يوم من الأيام أحد الزعماء الذين أثاروا الشعب على الحاكم ليزلر، وشنقوه سنة **1691** م ، فارتعش جوسي من الرعب وتشبث بمسندي الكرسي،

وقال بصوت أقرب إلى الهمس: وما الذي ترتئيه يا جورج لمجابهة هذا الوضع ؟..

فأجابه المستشار الثري وهو يتطلع في عينيه مباشرة: علينا أن نتلافى إثارة الجمهور قبل فوات الأوان ..

فقفز جوسي من على مقعده مسقطا كأس النبيذ وزجاجة الخمر على أرض القاعة، وهو يصخب ويهدد، فهدأ السيد كلارك من روعه وقال له ناصحًا: ألا ترى أن نهمل مشروع اعتقال فان دام؟

قال جوسي بلهجة عاصفة: غير أنني أبلغت "الشريف" قرارًا بإلقاء القبض على فان دام في اليوم السابع والعشرين من تشرين !

وكان هذا النبأ مفاجأة للسيد كلارك، ولكنه ارتفع عن كرسيه قليلًا، وحملق بعينيه وقال: سأعرج على "الشريف" في طريقي هذا المساء فهل ترغب في تبليغه أوامر جديدة؟..

احتقن الدم في عروق رقبة جوسي، وزأر قائلًا: نعم قل له أن يمزق ذلك القرار اللعين، وألا يأتي على ذكره أبدًا وإلا سلخت عنه جلده وهو حي يرزق!.. ، الويل لي من هذا الهولندي فهو يملك صحيفة ومطبعة، أما أنا فليس لي سوى مائتين من الجنود عديمي الجدوى !..

الفصل الثامن عشر

الصحافة المناضلة

واستعر القتال من الجانبين، وأخذ زينجر يتساءل في صحيفته لماذا يتوجب على أهالي نيويورك أن يذعنوا لحاكم "لا يمتاز عن البلاهة إلا بدرجة واحدة !.." ، و" ليس فيه من الإنسانية إلا الشكل ! " .

ولما نضد زينجر حروف هذه العبارة، وبلغ كلمة "البلاهة" أخذه الضحك، فجاءت كاترين لتعين سبب ضحكه، فقرأت العبارة المذكورة وقطبت وجهها وقالت بصوتٍ مرتعب: إنني لا أرغب أحيانًا أن يلجأ كتّابنا إلى استعمال الكلمات القوية، إنها تسبب لي قلقًا ..

فأجابها زينجر: ماذا تقولين يا كاترين، أنتمتع نحن بحرية القول أم لا نتمتع بها!.

فمال الذي يحملنا على أن نتوخى اللطف دائما ونخفي مشاعرنا الحقيقية؟ فجل ما نبتغيه من استعمال تلك الألفاظ القوية، هو جعل الشعب يحس بما نضمره لهذا الإنسان الدميم الخلقة الذي يحكمنا..

وكان الرد على هذه الحملة أن لجأ القاضي هاريسون محرر "الغازيت" الحكومية إلى تحبير مقالات يذكر فيها اسم زينجر و"الجورنال"

صراحة، فيستقبلها الطبّاع بابتسامة عريضة، وهو يطالعها عند باب بيته في أمسيات الصيف، لأنه يؤثر النضال المكشوف على النضال الصامت.

واتضح لهاريسون فيما بعد أن ردوده لا تشفي غليلًا، فعمد إلى التهديد المباشر، فكتب رسالة مغلفة من التوقيع يهدد فيها أسرة ألكسندر بأسرها، فأسرع زينجر إلى نشرها كلمة فكلمة، مع شهادة مشفوعة بالقسم تعرف اليد التي خطت تلك الرسالة، فما كان من هاريسون بعد كشف الستار عن هذه الفضيحة الجديدة، إلا أن تخلى عن تنفيذ مؤامرته الخاصة بأسرة ألكسندر، وكتب زينجر على الإثر يقول: لقد أنقذت صحيفتنا هذه حياة شخصين بارزين جدًا ..

فمن تكون الضحية المقبلة؟..

ونشرت "الجورنال" مقالات تحمل فيها على المحكمة الخاصة، التي أقامها الحاكم جوسي، ونعتتها بالمحكمة الخارجة على القانون، لأنها لا تقر نظام المحلفين، ووجد القاضي هاريسون نفسه عاجزًا عن مجابهة هذه التهمة، وكانت النتيجة أن تحاشت هذه المحكمة النظر في أية قضية من القضايا التي أنشئت من أجلها، فمن الجلي أن الحاكم خشي اللجوء إلى محكمته هذه ما دامت صحيفة زينجر قائمة.

اغتبط زينجر لهذه النتيجة، وإذ كان يجلس ذات مساء في حديقته بحضور زوجته، وعديله نيكول سيجن وقرينته بادره نيكول الحديث

قائلًا: لا تدري يا زينجر كم أنقذت أناسًا من المثول أمام تلك المحكمة الجائرة !..

وكان زينجر يجد مسرة في تحبير المقالات التي تتحدث عن محرر الصحيفة المنافسة، ومما ذكره بصدد القاضي هاريسون، قوله أن هيئة المحلفين قد أدانته لأنه زج شخصًا في السجن بتهمة ملفقة، والشخص هذا زميل قضائي قديم لهاريسون، وقد اختلفا معًا، فانقلب هذا الخلاف إلى شجار، والقانون يقضي بمحاكمة هاريسون بعد أن أدانه المحلفون، غير أن الحاكم جوسي وضع يده على نص الإدانة، ومزقها وطلب من هاريسون مواصلة تحرير "الغازيت".

وكتب زينجر في إحدى مقالاته يقول: وما الفائدة من الإدانة؟.. لنفترض أن شخصًا مسئولًا ضربك على رأسك بقطعة من الآجر وقضى عليك، فتمثل أرملتك أمام المحلفين وتشهد ضد الموظف القاتل، فيدينه المحلفون، ثم يأتي رجل كبير ويطلق سراحه !..

وذكرت "الجورنال" أن الحاكم عين في انتخابات وست – تشستر "شريفًا" بصورة غير قانونية، وراح هذا "الشريف" يعتقل الناس الأبرياء ويزج بهم في السجن.

وهكذا أخذت "الجورنال" تعدد الفضائح الواحدة تلو الأخرى، وتطالب الناس صراحة بإعادة جوسي إلى إنكلترا، وتقول إن حياة الناس

وممتلكاهم تظل معرضة للأخطار ما دام هذا الرجل حاكمًا على ولاية نيويورك.

وكان القاضي هاريسون عاجزًا عن صد هذه الهجمات، لأنها هجمات صادقة، فارتأى العودة إلى الأساليب اليائسة، ففي ليلة سبت كان زينجر منهمكًا في المطبعة يعاونه الطباع المساعد وأفراد أسرته كلها، وهو يبذل قصارى جهده في تهيئة عدد الأحد الصباحي، وليس له أي علم بالمؤامرة الجديدة التي يحيك خيوطها القاضي هاريسون ضده.

فلما ذهب في اليوم التالي إلى الكنيسة وجلس إلى الأرغن ليعزف عليه، تقدم منه رجل هولندي يعمل في تجهيز السفن"ستفادور" وهمس في أذنه قائلًا، إن القاضي هاريسون وثلاثة من أصدقائه قد دلفوا الليلة الماضية إلى حانة تقع في الميناء، وأصدروا أوامرهم إلى السكارى من الملاحين ومجهزي السفن وصانعي الأشرعة، بأن يهاجموا مطبعة زينجر ويشعلوا فيها النيران، وقد تحدث هاريسون إلى هؤلاء الناس كثيرًا وعرض عليهم مبالغ من المال، لكنهم بالرغم من مساعيه هذه كلها رفضوا الإذعان لأوامره رفضًا باتّا.

فتأثر زينجر لهذا الخبر المزعج، وأهوى بأصابعه على مفاتيح الأرغن بشدة حتى اهتزت الكنيسة وأقامت المصلين وأقعدهم.

ولما كان الأسبوع التالي نشر زينجر قصة المؤامرة بحذافيرها، فأحدثت ضجة كبرى، وهكذا ما أن ينصب أعوان الحاكم فخًا للأبرياء حتى يقعوا فيه، يتولى زينجر نشر التفاصيل في "الجورنال" .

وفي الأول من شهر أيار انتقل الطبّاع إلى بيت جديد، فأعماله تضخمت وعدد أفراد أسرته تضاعف وصار له من الأبناء ستة.

وبينما كان هو وأخوه جون والعامل الطبّاع يثبتون آلة الطباعة الضخمة في مكانها الجديد، كانت كاترين وشقيقتها ماريا تحملان القدور والمقالي إلى المطبخ الواقع في مؤخرة البيت، وتوقفتا قليلًا في الطابق العلوي لتلقيا نظرات فاحصة على الغرف الصغيرة التي ستقيم فيها العائلة الكبيرة، وأطلت كاترين برأسها من النافذة، فشاهدت قبالتها الجسر الممتد فوق القناة التي تخترق شارع برواد، ثم تطلعت عبر الشارع فشاهدت مترل السيد ألكسندر الجميل، وحديقته البديعة، والرصيف الأنيق القائم أمام البيت والحانوت والمكاتب، والرصيف الذي وضعت السيدة ألكسندر تصميمه فصار قبلة النيويوركيين في نزهاهم.

وانتقلت السيدة زينجر بنظرها إلى مسافة أبعد قليلًا فرأت بيتًا كبيرًا مؤلفًا من أربعة طوابق، شيده ستيفن دلانسي، والد قاضي القضاة " وقد عرفت هذه البناية فيما بعد، أي منذ أن أودع فيها واشنطن ضباطه باسم حانة فراونسيس ولا تزال قائمة حتى الآن" ..

وأما في الجهة المقابلة فقد قامت دار الحكومة الضخمة، وهي تبدو في الصباح الباكر وكأنها تغط في نوم هادئ، فالمنظر المجاور على الجملة هو منظر فخم، ويتناقض كثيرًا مع الصخب الذي يرافق تركيب آلة الطباعة في الطابق السفلي في بيت زينجر الجديد.

الفصل التاسع عشر

معركة انتخابية حامية الوطيس

نشبت المعركة فجأة في انتخابات حكومة مدينة نيويورك، وأطلت الأزمة العارمة برأسها، وتتألف حكومة المدينة من المحافظ والمسجل و"الشريف" الذي يعينه الحاكم، وأربع عشر شيخًا ينتخبون من السكان انتخابًا.

وبوسع المرء في انتخابات حكومة المدينة، أن ينتخب المرشح الذي يريده حتى ولو كان لا يملك بيتًا، ولكن يشترط في الناخب أن يكون تاجرًا أو صانعًا ماهرًا، ويحق لزينجر على هذا الأساس أن ينتخب، كما يحق لنسيبه فرد بيكر صاحب الحانة أن ينتخب، أما الرجل الذي يجر عربة فيحرم من حق الانتخاب.

ومعظم الشيوخ يعاد انتخابهم سنة بعد سنة، ويكونون عادة من المؤيدين للحاكم، وكانت الشكاوى ضدهم كثيرة، فالأغنياء يقولون إن هؤلاء الشيوخ يستأثرون بالعقود الخاصة بالأبنية والطرق، والفقراء يقولون إن هؤلاء الشيوخ يسخرونهم في أعمال تسوية التلال وشق الطرق عبرها، يضاف إلى ذلك أن المدينة تعج بالشحاذين، والشيوخ لا يمدون لهم يد المعونة.

ولعل أردأ موقف اتخذه هؤلاء الشيوخ، هو تغاضيهم عن معاقبة القاضي هاريسون، غير أن حزب الشعب قد تربص لهؤلاء الشيوخ في انتخابات المدينة بترشيحه غيرهم من أنصاره، وكان زينجر في هذه الآونة يطبع نشرات الحزب والأعضاء ويوزعونها بين الناس، ثم نشر كتيبًا ضمنه جدلًا بين جماعة العمال والشيوخ، فأضحك نصف سكان المدينة بكتيبه هذا، ولما رأى منهم تشجيعًا نظم أغانٍ سياسية وطبعها ونشرها.

وما أن أتم زينجر طبع "الجورنال" حتى خف إلى صندوق الاقتراع، فوجد هناك ثلاثة من أعضاء حزب المحكمة، الذين يعملون لصالح الحاكم، يقدمون الجعة والويسكي للناخبين، فاقترب من أحدهم وقال له: "صوت لمرشحينا ولن تندم أبدًا !" .

فضحك زينجر لهذا القول، أما جاره الحداد فقبل كأسًا من الويسكي وقال: " إنني على يقين بأن مرشحيكم أناس طيبون!.. " وبعد أن صبه في جوفه وقف إلى جانبه أنصار حزب الشعب، فأضحك أناسًا وأثار سخط أناس.

أخذ زينجر يحصي الأصوات، والناخبون يذكرون أسماءهم وأسماء مرشحيهم بصوت عالٍ، فبلغت خمسة وثلاثون صوتًا لحزب الشعب ضد خمسة أصوات لرجال الحاكم، فدلته هذه النسبة إلى ما ستسفر عنه الانتخابات.

ومن الشيوخ الذين باءوا بالخسران في هذه الانتخابات، شخص يدعى جون شامبرز، فلما رأى المعركة تنقلب ضده تقدم من خصمه وصافحه مهنئًا وأعلن ختام الانتخابات.

وانتقل زينجر إلى صندوق اقتراع آخر، ليشاهد القاضي هاريسون الذي يرتدي المطرزات، ويحمل عصاة مذهبة الرأس وهو يتقدم إلى الصندوق معلنًا اسمه، ويتبعه نفر من أصدقائه، فرحب به فريق وصفّر له فريق آخر، وكان هاريسون يعلق أهمية كبرى على هذه الانتخابات، لأن نصف الشيوخ سيكونون قضاة محكمة المدينة، وبوسعهم أن يقاضوه هو نفسه.

وتقدم من صندوق الاقتراع قاضي القضاة دلانسي على رأس خمسة عشر جنديًا من حرس جوسي، فتعالت أصوات الاحتجاج من كل جانب، وكان زينجر متيقنًا أن الجنود لا ينتخبون إلا أن دلانسي زعيم حزب الحكومة، أصر على منح حق الانتخاب لهؤلاء الجنود لأنهم قاموا بمهام الحراسة عشية الانتخابات !..

وبالرغم من هذه الألاعيب، فقد أسفرت النتيجة عن حصول حزب الشعب على **49** صوتًا ضد **45** صوتًا لمرشحي حزب المحكمة.

وقضى الناس طوال النهار وهم في غناءٍ وهتافٍ وكان بعضهم وقد فعلت الخمر في رؤوسهم فعلها، يضجون في الطرقات أو يغنون أغاني أغاني زينجر، بينما كان قطيع من البقر يقطع الشوارع والخيل تصهل،

والكلاب تنبح، لقد كان هذا اليوم الثلاثين من أيلول مشهودًا للنساء والأطفال، فقد هرعوا كلهم إلى الشوارع لمشاهدة عودة المنتصرين.

وعاد زينجر إلى بيته في وقت متأخر من الليل، وهو تعب قلق يفكر كثيرًا في الموقف الذي سيتخذه الحاكم إزاء فشل أنصاره، أيقبل هذه النتيجة بروح التواضع أم أنه رجل قتال؟..

الفصل العشرون

الشروع بالهجوم المعاكس

هتف الفتى جون بن زينجر معلنًا أن الشيوخ يسيرون في الشارع على شكل استعراض، فأسرع الطبّاع الأب وأثبت طرف مئزره الجلدي في حزامه وخرج إلى الشارع، فما أن وقعت أنظارهم عليه حتى لوحوا له بأيديهم وحيوه، وكانت أشعة شمس تشرين الثاني تنعكس على رؤوسهم المصفرة فتزيدها جمالًا.

كانوا أربعة عشر شيخًا، وليس بينهم سوى شيخ واحد من أنصار جوسي فقد أعيد انتخابه بأقلية ضئيلة جدا إذ نال **38** صوتًا ضد **37** صوتًا نالها خصمه، وأما الرابع عشر السيد "ستيسفاند" فقد أعيد انتخابه أيضًا لأنه شيخ محايد، ولما مروا بالمطبعة توقف أحدهم وهمس في أذن زينجر قائلًا: لقد ضرب لنا الحاكم موعدًا ليتحدث إلينا، إنك موضع تفكيره يا زينجر!..

وصدرت "الغازيت" الحكومية صباح يوم الإثنين، وفي صدورها نص الحديث الذي أدلى به الحاكم للشيوخ، فطالعه زينجر وقد جاء فيه ما يلي: "إنني أسترعي انتباهكم إلى صحيفة تطبع في هذه المدينة وهي لا تنفك تمسكم أنتم، لأنها تدعي أن انتخابكم جاء ضد مصلحة الحاكم،

وأنتم تعلمون جيدا ألا مصلحة لي في هذه الانتخابات، وعلى ذلك أسألكم أن تتخذوا التدابير اللازمة لمعاقبة صاحب هذه الصحيفة ومحرريها".

ورأى زينجر معلم التهديد والخطر تكمن بين تضاعيف كلمة الحاكم هذه، واتضح له أن الحاكم قد أدرك المعنى من نتائج الانتخابات، ولو أنه يجيد القراءة، وبينما كان صاحبنا الطبّاع منصرفًا إلى عمله في ترتيب عدد جديد من "الجورنال" إذ سمع طرقًا على الباب، فداخله خوف كما داخل زوجته وشقيقتها، ولما فتح الباب وجد نفسه أمام خمسة من الشيوخ المنتخبين حديثًا، فرحب بهم وقدم لهم المقاعد، وبعد لحظة من الصمت أخرج أحدهم مخطوطة من جيبه، وقدمها لزينجر قائلًا: إليك هذه النسخة عن "نظام المدينة الجديد" وبودنا نشره ليطلع عليه الشعب، وليعلم الكيفية التي تدار بها حكومة مدينته، فماذا تقول في ذلك؟..

كان لهذه المفاجأة وقع شديد في نفس زينجر، فالحاكم يأمر الشيوخ بأن يعاقبوه، وهؤلاء يأتون إليه ليكافئوه.

وأضاءت كاترين عددًا من الشموع، وقدمت كؤوس الجعة للزائرين، وبعد نصف ساعة من الزمن تمت الاتفاقية بين الطرفين، وهي تقول بدفع سبعة جنيهات لزينجر "وهو مبلغ ضخم يتقاضاه طباع في تلك الأيام"، وأن يقدم للحكومة ست نسخ مطبوعة، وما تبقى من النسخ يعرض للبيع بسعر ثلاثة شلنات للنسخة الواحدة.

ونشرت "الجورنال" بعد أيام مقالًا فندت فيه قول الحاكم إنه لم يتدخل في الانتخابات، وأثبتت أنه على العكس من ذلك قد ساعد أنصاره مساعدة فعلية.

وفي عصر اليوم الذي نشر فيه هذا المقال، دلفت كاتي شقيقة زينجر إلى البيت وهي تلهث من الرعب، وسلمت الطباع إعلانًا وقالت: لقد أمر الحاكم تعليق هذا الإعلان في جميع الحانات!..

وتلا زينجر الإعلان متلهفًا فوجده صادرًا عن مجلس صاحب الجلالة، وهو يأمر بإحراق بعض نسخ من "جورنال نيويورك الأسبوعي" وقد جاء فيه: " وعلى الجلادين وضاربي السياط أن يحرقوا هذه الأعداد في ساحة النصيبة التي يقيد إليها المذنبون، يوم الأربعاء السادس منه بين الساعة الحادية عشرة والثانية عشرة ظهرًا" .

فتولت زينجر الحيرة، وهو لا يفقه الغاية من هذا التدبير الذي لجأ إليه المجلس، وقال لشقيقته: أجل يا أختاه إنهم يحاولون تحذيري، وليس من موجب لرعبك هذا..

وأعاد لها المنشور قائلًا: خذيه وألصقيه على باب حانتك، بحيث يتمكن كل امرئ من مطالعته، وسنرى قريبًا فيما إذا كان لنا أصدقاء، أم نحن نقف بمفردنا في هذا المعترك.

وجاء السيد ألكسندر إلى المطبعة في الصباح الباكر، وقال لزينجر: كيف هي عزيمتك؟..

فصرف الطباع أسنانه وأجاب: إنني أرتجف مثل أوراق أشجار الخريف ! وضحك.

فقال له المحامي الطويل القامة: انتظر حتى أنهي إليك قصة أخرى عن شخص اسمه بيتر أيضًا، فنحن نقتني عبدًا يحمل هذا الاسم، ومن عادته أن يقف عند رأس السيدة ألكسندر في شتى الحفلات التي تقيمها لأصدقائها، أو لأقاربها العديدين ممسكًا بيده مروحة من ريش الطاووس ليطرد بها الذباب عن المائدة، وكان بيتر الزنجي هذا يصغي بطبيعة عمله إلى جميع الأحاديث التي تدور بيننا وبين ضيوفنا.

وعلى ذلك أرسل الحاكم جوسي إلى بيتنا محاميًا، يدعى السيد وارل ليقابل العبد خفية ويعرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال ييسر له أمر شراء حريته، إذا هو أفاده بأسماء الأشخاص الذين يحررون في "جورنال" زينجر.

وكان جواب العبد المجعد الشعر الكثير الشيب، أن تقدم إلى باب الغرفة بعظمة، وإنفة وفتحة مشيرًا إلى محامي جوسي بالخروج، ثم راح العبد يهمس في آذان محرري "الجورنال" وهم زعماء حزب الشعب قصة هذه المفاوضات.

فهتف زينجر قائلًا: ألا حيا الله بيتر العبد !.. ، وقرع باب الدار في هذه الأثناء، ثم فتح على مصراعيه، ودلف منه "الشريف" سيمس، وفي إثره جلاد دميم السحنة.

ولم يتوقع "الشريف" الهولندي الأصل أن يرى ألكسندر عند زينجر، فما أن وقع نظره عليه حتى استبدل بعنجهيته لطفًا، ورفع قبعته عن رأسه، وقال: أرجو المعذرة يا صاحب السعادة، فقد أمرت بان أصادر هذه الأعداد من صحيفة زينجر، وأطلعه على منشور الحاكم.

فابتسم زينجر وقال: ادخل وفتش، وفتح باب غرفة صغيرة في المطبعة وتابع كلامه قائلًا: إننا نحتفظ هنا بجميع الأعداد القديمة من الصحيفة، فابحث بينها عما تريده!..

وراح "الشريف" والجلاد يبحثان في الغرفة، وفي بعض أقسام المطبعة فلم يعثرا على نسخة واحدة من الأعداد التي صدر الأمر بحرقها، فعلق زينجر على فشلهما في مهمتهما بقوله: أليس من العجيب أن تختفي هذه الأعداد؟.. ، لقد كانت بالأمس مكدسة هنا وهناك أما اليوم فلا أثر لها بتاتًا.

خرج "الشريف" والجلاد إلى الشارع وراحا يقرعان البيوت، باحثين عن الأعداد المطلوب حرقها عند النصيبة التي يقيد بها المذنبون، وذهب زينجر في صبيحة يوم الإحراق إلى بيت أحد أصدقائه الذي يطل على الساحة ليراقب من النافذة ما يجري فيها.

وطلب القاضي هاريسون إلى السيد برادفورد، أن يطبع كمية كبيرة من "الغازيت" التي تحمل منشور صاحب الجلالة الخاص بعملية الإحراق، وراح يوزعها في كنائس المدينة وحاناتها، غير أن حزب الشعب قد اتخذ

من جانبه التدابير اللازمة، فالشيوخ المنتخبون حديثًا رفضوا مشاهدة عملية إحراق أعداد "الجورنال" كما منعوا جلادهم من المساهمة في تنفيذ هذا الأمر.

ولما أزفت الساعة المعينة، تقدم القاضي هاريسون مع أربعة من ضباط الحاكم، ويتبعهم "الشريف" وهو يحمل رزم "الجورنال" ويسير في إثره عبده الزنجي، وأجال القوم أنظارهم في شارعي برواد ودال، فلم يجدوا فيهما مخلوقًا مع أن العمال في ساعة الغداء.

وأصدر هاريسون أمره إلى "الشريف" قائلًا: والآن اشرعوا في تنفيذ أمر إحراق أعداد "الجورنال" !..

فأجابه الشريف محتجًا: لا ينبغي أن أوقد النار بيدي، هذا عمل لا يليق بكرامتي!..

قال هاريسون: أصدر أمرك إذن إلى عبدك ليوقدها!.. ، فالتفت الشريف سيمس إلى عبده وقال: اجمع بعض الأخشاب من هنا وهناك وأشعل فيها النار.

وراح العبد يبحث عن بعض العيدان والأخشاب، فقادته قدماه إلى نجار مجاور فوجد هناك كومة من نفايات الخشب، فجمع منها كمية، وإذا بالنجار يطل من النافذة ويصرخ فيه قائلًا: إيه أيها اللص ! أتسرق الخشب ؟ ألقه أرضًا !

وألقى العبد المسكين النفايات وابتعد، وكان يلاقي المعاملة ذاتها في كل حانوت يطرقه طالبًا للوقود، وراح يجمع الأوراق والخرق البالية من الأزقة القذرة، ومنها أوقد النار المطلوبة.

وتلا الشريف بصوتٍ عالٍ أرقام "الجورنال" المعدة للحرق وهي: العدد السابع، والسابع والأربعين، والثامن والأربعين، والتاسع والأربعين، ثم قال من الذي سيقوم بعملية الحرق فليتقدم.

فأجابه القاضي هاريسون غاضبًا: أحرقهم بنفسك!..

قال الشريف: كلا يا حضرة المسجل، إن المجلس لم يخصني بأوامره فالجلاد عادة هو الذي يقوم بعملية كهذه، وهو متغيب اليوم إنني لا أخالف القوانين في موقفي هذا !.. ، وسلم نسخ الصحيفة إلى العبد، وعقد يديه إلى الخلف وسدد أنظاره إلى السماء.

والتقى زينجر وهو عائد إلى البيت العازف على الأرغن هنريك كوك، وعديله نيكول سيجن صانع العربات، وكانا يرابطان في زوايا الشوارع لينبها الناس إلى ما يجري في تلك الساحة.

فقال هنريك: انظرا .. لم يجد هاريسون سوى العبد ليحرق له أعداد الصحيفة ..

وهز نيكول رأسه وقال: إنني لا أفقه شيئًا من هذا الوضع، ألم ترفض هيئة المحلفين إدانة بيتر زينجر، و" الجورنال" معه ؟.. ، ثم هل قدم بيتر للمحاكمة العادلة وسمح له بالدفاع عن نفسه وعن صحيفته؟.. أم أن

الحاكم وأنصاره يتبعون اليوم طريقة مستحدثة، مبنية على جعل العقوبة تسبق المحاكمة ؟..

الفصل الحادي والعشرون

اعتقال زينجر

وجاءت في اليوم التالي كاتي شقيقة زينجر وهي تحمل منشورًا صادرًا عن الحاكم، طلب منها تعليقه في حانتها، والمنشور هذا يعرض مكافأة قدرها خمسون جنيهًا لمن يدلي بأسماء محرري "الجورنال".

فصفر زينجر وقال: هذا مبلغ كبير حقًا !.. ، وداخله القلق في هذه المرة أكثر من أي وقت مضى، وأحس بعجزٍ عن مقاومة هذا الإغراء المالي الذي يعرضه الحاكم، وماذا يحدث لو أن شخصًا من الناس وشى بأسماء المحررين؟..

فأعنف العبارات كتبها زينجر نفسه، والسيد ألكسندر، ولويس موريس الابن، وبعض المحررين المساعدين، وأية عقوبة تنتظر هؤلاء الأشخاص جميعًا إذا ما أدينوا بتهمة التحريض سوى الشنق ؟..

وحاول زينجر إخفاء اضطرابه عن شقيقته وقال: ألصقي هذا المنشور في حانتك أيضًا، وشيعها إلى خارج الدار وهو يجول بنظره في الشارع المغمور بأشعة الشمس، باحثًا عن نكتة يطلقها لمناسبة صدور هذا المنشور الجديد، لكن النكتة لم تسعفه في تلك اللحظة.

وبينما كان في صبيحة يوم الأحد التالي متوجهًا إلى الكنيسة الهولندية القديمة، ليعزف فيها على الأرغن التقى قاضي القضاة دلانسي وجهًا لوجه، فقال له الطباع: عم صباحًا يا صاحب الشرف، فأجابه خصمه دلانسي مبتسمًا: أهلا بالسيد زينجر هذه فرصة طيبة، لقد فكرت كثيرًا بالتحدث إليك، لقد سألني صاحب السعادة الحاكم أن أبلغك رسالة شخصية، يسألك فيها أن تحيطه علمًا بأسماء محرري "الجورنال" لقاء مكافأة هي ضعف ما عرضه في منشوره، إنه مبلغ كبير وفي يقيني أنك ستقبل هذا العرض الذي يؤمن لك ولعائلتك مبلغًا طيبًا، ثم إن صاحب السعادة الحاكم يضمن لك السلامة من كل أذى !..

فرفع زينجر كتفيه، وأثبت قبعته إلى الخلف قليلًا، وأدار ظهره وابتعد، مرددًا عبارة وردت في صحيفته تقول: " إنني لا أبيع أصدقائي من أجل كسرة خبز، لا كسب العار المغموس بخبز الخيانة !" .

امتقع وجه دلانسي من الغضب، وتابع زينجر سيره صوب الكنيسة مظهرًا لقاضي القضاة عدم اكتراث كلي .

وفي يوم الأحد التالي الموافق 17 تشرين الأول، كان زينجر يعود إلى بيته برفقة أسرته، وبعد الانتهاء من الصلاة في الكنيسة، تتقدمهم إليزابيث وهي تبدو نحيلة بثوبها الحريري الطويل، ويتبعها أخواها نقولا وبيتر، وهما يضحكان ويدحرجان حجرًا صغيرًا بأقدامهم، ويسير في إثرهم شقيقهم الأكبر جون وهو حدث مشاكس، له من العمر إحدى عشرة سنة، ويتبعهم جميعًا زينجر وزوجته كاترين، وكانت هي تتأبط

ذراعه وكتاب الصلاة يتدلى من حزامها، وحدثته في هذه الأثناء قائلة: إنني أعرف بم تفكر، فبالرغم من كل التهديدات التي بلغتنا لم نصب بسوء !..

كانت المطبعة وهي البيت أيضًا تبدو في أيام الآحاد غير طبيعية، فلما ولجتها الأسرة أحست بالسكينة تخيم عليها، فالآلة الطابعة تقف مثل الصنم، وأكداس العدد الجديد الذي لم ينته بعد تقوم هنا وهناك، والقطة تمسح وجهها تحت قوائم المطبعة، وقادت كاترين أولادها إلى المطبخ، حيث كانت ابنتها ماريا تعد الحمام للصغيرين فردريك وإيفرت.

ولما غدا زينجر بمفرده في المطبعة هرع وراء القطة، ثم توقف عند أكوام الكتيب الخاص "بنظام المدينة الجديد" ، فسره أن يرى أنه قد أتم نصف الكمية المطلوبة منه في فترة وجيزة من الزمن، وفجأة سمع صوتًا من خلفه يقول: قف !.. باسم الملك!.. ، ففزع الطبّاع في بادئ الأمر من هول المباغتة، ثم تلفت إلى الخلف فوجد نفسه أمام "الشريف" جون هنريك سيمس .. برفقة جنديين ترتسم على وجهيهما علائم الجد ..

وتساءل زينجر متعجبًا: ما المعنى من هذا كله؟.. ، فأجابه الشريف: لقد صدر الأمر باعتقالك.

وبعد هنيهة جاء القاضي هاريسون واضعًا يديه على جنبيه، ومبرزًا كوعيه إلى الأمام والشرر يتطاير من عينيه، وقال للشريف: اتل عليه الأمر أيها البليد الذهن !..

اتله على عجل قبل أن يأتي إلى المطبعة أحد من الناس.

وتلا الشريف بصوت عالٍ الأمر الصادر من مجلس صاحب الجلالة، بإلقاء القبض على الطباع وزجه في السجن، فغمرت زينجر موجة من الحزن، وأجاب مترددًا: طيب انتظروا لحظة ريثما أجمع حوائجي وأودع زوجتي و ..

فصاح هاريسون غاضبًا: اسحبوه إلى الخارج !..

وقبض الجنديان على ذراعي زينجر ودفعاه إلى خارج الدار، وهرعت كاترين مع أبنائها على الجلبة فلما رأت القوم يسوقون زينجر راحت تصيح قائلة: النجدة .. النجدة .. إنهم يعتقلون زوجي .. النجدة!..

فما أن سمع الناس أصوات الاستغاثة حتى أطلوا من النوافذ، والأبواب على امتداد شارع برواد مستطلعين الخبر، وأسرع هاريسون وجماعته في المسير صوب دار الحكومة، قبل أن يخلع الناس رداء الراحة في يوم الأحد، ويثوروا في وجه الحاكم وسلطانه.

وكانت زوجة الطباع تركض خلف معتقلي زوجها وهي تصرخ وتنوح ..

الفصل الثاني والعشرون

زينجر في السجن

احتشد الناس طوال بعد الظهر عند باب دار الحكومة، وهم يصخبون ويضجون ولو لم يكن ذلك اليوم يوم أحد، لقاموا بحركة شغب وثورة.

وكان السجن يقع في الطابق السفلي من العمارة الداكنة، وقد زج المجرمون في ثلاث غرف، وهم خليط من القتلة واللصوص والمسنين، والفتيان والمرضى والمعتوهين، وسمع زينجر أحدهم يقول: إننا لا نريد هذا الاختلاط أبدًا !..

وبعد انتظار طويل اقتاده الحرس إلى طابق أرضي، ووضعوه في غرفة صغيرة مظلمة، رطبة، عفنة وأغلقوا الباب وراءه، ولما اعتادت عيناه رؤية الظلمة اتضحت له معالم المكان، فالأرض مغطاة بالقش ويرقد عليها ثلاثة رجال، وفي الغرفة كرسي واحد وطاولة شبه محطمة، وانقضت ساعات وإذ بيد السجان تمتد فجأة من كوة الباب، وهي تحمل جذع شجرة ألصقت فيها شمعة، وقال صاحب اليد: خذ هذه الشمعة يا هذا !..

فأسرع زينجر واختطف من يده جذع الشجرة، ثم قال له السجان: أما إذا أردت أكلًا فعليك أن تبتاعه من الحانة القريبة من السجن، فأعطاه زينجر ورقة مالية بقيمة شلن واحد.

ثم قال السجان: اجمع هذا القش وضعه في الموقد، وسأحضر لك قشًا تنام عليه، ولكن حذار أن تشعل النار في العمارة كما حاول غيرك في الماضي !..

قال زينجر: إنني أريد إرسال كتاب لزوجتي، لتأتي إلي ..

فأجابه السجان: لقد حضرت زوجتك إلى هذا المكان، لكنّا لم نسمح لها برؤيتك.

فتساءل زينجر حانقًا: لماذا منعتموها من رؤيتي ؟..

قال السجان: لقد أمرنا بذلك.

قال زينجر: إذن أعطني ريشة وحبرًا وورقة، سأكتب رسالة إلى المحامي !..

فأجابه السجان: وهذا الأمر ممنوع أيضًا ، فصاح زينجر: ولكنك لا تستطيع منع سجين من الاتصال بمحاميه، هذا حقه الطبيعي !..

فابتعد السجان دون أن ينبس بكلمة واحدة، غير أن زينجر صاح في إثره قائلًا: إنني أعرف من الذي أصدر لك هذه الأوامر الجائرة !..

كان السجان يقيم في غرفة تقع أعلى درج الطابق الأرضي، يساعده حارسان بالمناوبة، والسجان هذا مسئول عن المساجين فهو يقدم لهم القشليناموا، ويتقاضى بالإضافة إلى راتبه مبلغ أربعة شلنات أسبوعيًا،

عن كل سجين لا يستطيع ابتياع قوته، وهؤلاء المساجين الفقراء يتلقون أحيانًا بعض الحسنات، كالأكل والثياب من أهل الخير والكنائس.

وقلة من السجناء الذين يظلون طويلًا في السجن فمن تثبت عليهم الجريمة: كالقتلة واللصوص، والمزورين يرسلون إلى المشنقة، أما المتهمون بسرقة الخبز من رجال ونساء فيجلدون علنًا، وغالبًا ما يقضي عليهم هذا الجلد، أما الذين يظلون على قيد الحياة منهم فيزجون في السجن مدة ستة أشهر ثم يطلق سراحهم.

وبلغ زينجر في صبيحة اليوم التالي رنين الجرس الذي يحمله الحارس، ثم فتح باب الغرفة وقال الحارس: إنك مدعو إلى الطابق العلوي !..

وقاده الحارس إلى الطابق الثاني، فداخلته الثقة بنفسه حين شاهد السيد ألكسندر محرر "الجورنال" وزميله السيد سميث، الذي يطلق عليه أعضاء حزب المحكمة اسم "الغول" لخوفهم منه، وكان هذان المحاميان في طليعة محاميي مستعمرة نيويورك وأبعدهم شهرة.

فقال السيد ألكسندر مخاطبًا زينجر: لقد أحاطتني زوجتك علمًا باعتقالك، وكنت متغيبًا عن المدينة لكنني أتيت مسرعًا قدر استطاعتي.

وقال زميله المحامي سميث وهو يصافح زينجر: إنك رجل شجاع يا سيد زينجر، لقد علمنا أنك رفضت الإدلاء باسم محرري صحيفتك، حتى بعد إحراق بعض نسخها، إنني أعجب برجل جريء مثلك، ونحن على أتم استعداد للدفاع عنك.

قال الطباع معترضًا: لكنني لا أملك من المال ما يكفي لأجر محامٍ واحد فكيف لي أن أدفع أجر محاميين !..

فابتسم السيد ألكسندر زعيم حزب الشعب وقال: لا تتحدث عن الأجر يا صديقي، فنضالك هو نضالنا، وإذا ما خسرته فسيوجه إلينا الأنصار عبارات التقريع والتوبيخ، وليس بميسورنا أن نفعل كثيرًا من أجلك، لأن القضاء قد أعد ضدك إلا أن صديقنا السيد موريس الذي عزل من منصب قاضي القضاة تعسفًا سيبحر قريبًا إلى إنكلترا، وسيعمل هو شخصيًا على تقديم معروض خاص إلى المسئولين هناك ليصدروا أوامرهم إلى الحاكم جوسي، ليكف عن اضطهادك، وقد سبق للسيد موريس أن سافر إلى إنكلترا ذات مرة وقدم معروضًا ضد الحاكم كورنبري، إلى الملكة "آن" الطيبة الذكر، فكانت النتيجة أن قضى الحاكم سنة كاملة في السجن ذاته الذي تقيم فيه أنت الآن ، ونحن لا نتوقع الحصول على رد سريع من الملك جورج الأول، ولكننا لا نفقد الأمل على كل حال، والآن يسرنا أن توقع على هذه الأوراق، وهي تتضمن قضية مرفوعة ضد الحكومة، كما تتضمن معروضًا لإخراجك من السجن بالكفالة إلى حين المحاكمة.

ووقع زينجر الأوراق بيدٍ مرتعشة، وعاد إلى سجنه وبعد يومين استدعي إلى الطابق الثاني ليقابل محامييه، فقال السيد سميث: عليك أن تدرك يا سيد زينجر أن قضيتك هذه ليست مجرد قضية أقيمت ضد طبّاع، فمحاكمتك ستقرر مصير الشعب الأمريكي، فإما أن يعيش حرًا

في ظل حكام يحترمون القانون، وإما أن يعيش مستعبدًا في ظل حكام لا يقيمون للقانون وزنًا !..

وابتسم زينجر للمرة الأولى منذ اعتقاله، فهو رجل محب للنضال، ومما يزيده تشجيعًا وجود محاميين لهما وزنهما يقفان إلى جانبه، فقال مجيبًا على كلام السيد سميث: لا يهمني أمري كثيرًا ما دمت أقدم المعونة لغيري من الناس.

وساروا جميعًا إلى قاعة المحكمة، حيث وفد إليها عدد كبير من السكان وكلهم رغبة لمعرفة المعنى من هذا النضال المستعر بين الحزبين..

وظهر على المنصة القاضي دلانسي، زعيم حزب المحكمة وجلس على مقعده ولمح زينجر على القاضي علامات القلق، بالرغم من الألبسة الحريرية الزاهية التي يرتديها، وتقدم السيد ألكسندر من القاضي وسلمه اعتراضًا يقول فيه إن اعتقال زينجر كان غير قانوني، وأنه يسأل المحكمة إطلاق سراحه بالكفالة.

قرأ القاضي دلانسي المعروض، فامتقع وجهه سريعًا وتقلصت عضلاته وقال: سننظر في هذا المعروض عصر يوم السبت القادم.

تذاكر زينجر مع محامييه همسًا، ثم نهض السيد سميث وقال بلهجة فعالة: يا صاحب السعادة، يقول موكلي أنه منذ أن زج في السجن وهو محروم من الحريات العادية التي يخولها القانون للسجين، ومنها منعه من كتابة الرسائل، ومن التحدث إلى زوجته وأصدقائه، وإلى قسيس الكنيسة

التي يعزف فيها على الأرغن، وإنني لأرغب في طرح هذه الأسئلة على سعادتكم: من هي هذه السلطة التي أمرت باتّباع هذه الإجراءات الشاذة؟ ، وهل لهذه المحكمة علم بها؟ ، أم أنها اتخذت بصورة غير قانونية؟ ، وهل في نية المحكمة أن ..

وتطلع القاضي الفتى قلقًا إلى الجمهور الغاضب، وأسرع إلى مقاطعة السيد سميث بقوله: إنني أدرك وجهة شكوى موكلك يا حضرة المحامي، وإنني أسترعي انتباه "الشريف" بأن هذه المحكمة لا تحبذ جعل السجين منقطعًا عن الناس، وبذلك أؤجل النظر في طلب محامي الدفاع وأرفع الجلسة.

وأعيد زينجر إلى سجنه الكريه، الرطب وجاءته زوجته بعد الظهر، وتطلع إليها من كوة الباب، فرآها على ضوء القنديل المعلق فوق الدرج، تقف إلى جانب ابنه جون، واستفسر منها بشوق عن صغاره فطمأنته، ثم طلب من جون أن يأتيه بالطعام والوقود والأحزمة وبمعطفه الدافئ، وقال لزوجته: إنني قلق على مصير "الجورنال" وأخشى أن يتوقف حتى خروجي من السجن بالكفالة يوم السبت القادم.

قالت له كاترين: ليس من موجب لخشيتك هذه، وثق بأننا سنتابع إصدارها بمعونة جون والطباع المساعد الأمين، وما عليك إلا أن تزودنا بتعليماتك من كوة باب سجنك هذا.

فأجابته كاترين: بل وسيفاجأون بما لا يسرهم، غير أن إصدار الصحيفة سيمنعنا من طبع أي شيء آخر، وسأحتفظ بكتيب "نظام المدينة الجديد" إلى حين خروجك من السجن، أما "الجورنال" فستشع كما كانت تشع دائمًا !..

فقال لها زينجر: أحضري لي يا كاترين ريشة وحبرًا وورقًا وسأكتب للصحيفة من سجني هذا ..

فأجابته مرتاحة: سأحضر لك ما تريد يا بيتر، والسجان لا يمانع في ذلك.

الفصل الثالث والعشرون

النضال من أجل حرية زينجر

استدعى زينجر عصر يوم السبت التالي، إلى الطابق العلوي من السجن لمقابلة محاميه، وقد سره أن يرى كاترين هناك أيضًا، رافعة الرأس بالرغم من التعب البادي على محياها.

قال له السيد سميث: لا ندري ما قيمة الكفالة التي سيطلبها القاضي، ويلوح لي أنه بوصفه زعيمًا لحزب المحكمة، يفضل بقاءك في السجن ليمنعك من طبع صحيفتك، فما هو المبلغ الذي تستطيع كفالة نفسك به؟ ..

فتطلع زينجر إلى زوجته، وتباحثا معًا هنيهة، ثم قالت كاترين: بوسعنا أن نقدم كل ما ندخره من مال وهو أربعون جنيهًا، فحرر السيد سميث إقرارًا جاء فيه: "أقر أنا جون بيتر زينجر أنني لا أملك أكثر من أربعين جنيهًا باستثناء جهاز عملي وألبستي.

فعلق زينجر على ذلك بقوله: هذا كلام حق.

قال المحامي: تفضل ووقع هذا الإقرار، وإذا ما طلب القاضي مبلغًا أكبر، حتى ولو كان مائة جنيه فأصدقاؤك سيدبرونه، والصعوبة في الأمر

أن نيويورك تعاني قلة في المال منذ سنين، وفقًا لما جاء في أول كتيب نشرته مطبعتك، والواقع أن عدد من الأصدقاء يملكون السفن والمنازل، والأراضي لكنهم لا يملكون إلا القليل من النقد، ولا توجد في نيويورك مصارف تقرض الأموال كما هي الحال في لندن.

فهز زينجر رأسه قائلًا: ولكنني مدين لهؤلاء الأصدقاء بمبالغ مختلفة، ويتعذر علي أن أقترض منهم مبالغ أخرى.

قال السيد ألكسندر: أنت لست بحاجة لاقتراض هذه المبالغ، ولكن ما العمل ؟

فهلم بنا إلى قاعة المحكمة.

وأخذت زينجر الدهشة حين رأى القاعة تغص بالناس، وتذكر المصادر التاريخية أن القاعة كانت تضم مئات من الآهلين، مما يدل على أن معظمهم كان يرابط خارج قاعة المحكمة.

ولما جلس القاضيان في مقعديهما، نهض قاضي القضاة دلانسي وقال: إن المحكمة مستعدة لسماع حجة الدفاع بصدد خروج السجين بالكفالة.

فقدم له السيد ألكسندر إقرار زينجر القائل بأنه لا يملك أكثر من أربعين جنيهًا.

وألقى قاضي القضاة نظرة على هذا الإقرار وقال: هذا المبلغ غير كافٍ ولا بأية حالٍ من الأحوال ..

وأحس زينجر بقشعريرة تسري في جسمه، إذ تصور أنه سيقضي الأسابيع في سجنه المظلم، الرطب القذر، في انتظار يوم المحاكمة.

وأخذ المحاميان يناقشان القضاة بصدد قيمة الكفالة المطلوبة، فذكر السيد ألكسندر أن "الماغنا – كارتا " " أي البراءة الصادرة من ملك الإنكليز يوحنا سنة **1215**م بإنشاء مجلس الشورى في إنكلترا – المترجم " تقول بطلب كفالات معقولة من أفراد الشعب، وذكر لوائح مجلس العموم بهذا الصدد، فلائحة الحقوق الصادرة سنة **1689** م تقول صراحة " لا يجوز طلب كفالات باهظة القيمة " ، وإذا وقع نظر السيد ألكسندر على كتاب القوانين بيد النائب العام برادلي، اتجه إليه وسأله بلطف زائد: أتجدون مانعًا في إعارتي كتاب القوانين للحظة ؟..

فأجابه النائب العام مرتعشًا: لا مانع في ذلك أبدًا تفضل، وراح السيد ألكسندر يتلو بعض فقرات من القانون، فاطمأن زينجر إلى أن القانون يخول له حق الخروج بكفالة معقولة إلى أن يحين يوم المحاكمة.

غير أن النائب العام حين رأى خصمه يستند إلى كتاب القوانين اضطرب، فشد قبضته وزم فمه وقال: إن من يسجن بتهمة الطعن لا يسمح له بالخروج بالكفالة مطلقا !

فنهض السيد سميث وأدلى ببراهين جديدة، تقول بإخلاء سبيل موكله بالكفالة، ذاكرًا قضية الأساقفة السبعة الذين اعتقلوا بتهمة الطعن أيضًا، فقد خرجوا بكفالة مائة جنيه لكل أسقف، حتى أن رئيس الأسقف قد خرج ذات يوم من السجن بكفالة قيمتها مائتي جنيه، وعلى ذلك لا يجوز أن يطلب من طبّاع بسيط الحال، لا يملك أكثر من أربعين جنيهًا، كفالة توازي الكفالة المطلوبة من أسقف !..

فهب النائب العام برادلي منتصبًا على قدميه وصاح: من يجرؤ على إجراء مقارنة بين رئيس الأساقفة والأساقفة السبعة، وطبّاع خبيث خائن يبث الفوضى بين الناس ؟..

وأحس زينجر برغبة قوية لأن يتقدم من منصة النائب العام، ويهوي بقبضة يده على وجهه، وسمع الناس يزأرون من الغضب، ويصرخون قائلين: العار لبرادلي ! ، وقال أحدهم أأنت نائب عام أم ثور مصارعة ؟..

ونهض السيد سميث مجددًا وناقش النائب العام مستندًا إلى الحجج والبراهين إلى أن تضايق قاضي القضاة نفسه وانضم إلى النيابة العامة ضد الدفاع، وكان الجمهور لا ينفك يصرخ في وجه برادلي ودلانسي قائلًا: العار لكما .. العار !..

وأخيرًا ضرب دلانسي المنصة بالمطرقة وقال بين غاضب وخائف: إنني أدعوكم إلى التمسك بالنظام، وبعد أن هدأت العاصفة في القاعة، أعلن قراره قائلًا: بعد أن درسنا أمر الكفالة من جميع وجوهه، قررنا قبولها

وقدرها أربعمائة جنيه يدفعها المتهم، بضمانة كفيلين اثنين آخرين، يدفع كل منهما كفالة قيمتها مائتي جنيه، ويظل السجين رهين السجن إلى أن يتم دفع هذه المبالغ !..

وثارت في القاعة عاصفة من السخط، حملت القضاة على الإسراع بالخروج، وأخذ زينجر يحصي على أصابعه قيمة الكفالات المطلوبة وقدرها ثمانمائة جنيه، وهي أكثر من ثمن البيت الذي يقيم فيه والمطبعة التي يعمل فيها معًا.

وتذاكر زينجر مع المحاميين طويلًا في غرفة الاستشارة، وقال لهما في نهاية الأمر: إن المحكمة تطلب مني كفالة قدرها عشرة أضعاف ما أملك، وهذا يعني أنني لا أستطيع طلبها من أي مخلوق كان.

فأجابه السيد ألكسندر: ثق يا زينجر بأنني والسيد سميث سنكفلك بقيمة مائتي جنيه لكل منّا، مع كل مشقة نصادفها في هذا السبيل، أما الأربعمائة جنيه فسنجمعها لك من الأصدقاء ..

فقال زينجر: كلا .. كلا !.. إنني لا أقبل هذا العرض، وعاد إلى سجنه والألم يحز في نفسه، ولكنه ظل محتفظًا باعتزازه وكرامته.

الفصل الرابع والعشرون

أول امرأة صحفية

وكانت مفاجأة غير منتظرة لأصدقاء الحاكم جوسي، حين رأوا في صباح الإثنين أبناء زينجر يحملون العدد الجديد من "الجورنال" وينادون عليه في الشوارع بأعلى أصواتهم.

وقد استهل العدد بكلمة كتبها زينجر من سجنه، وما تبقى من الصحيفة فقد كانت مجموعة من الأنباء والمعلومات الخاصة بالقضية، تضاف إليها إحدى الخطب التي وجهها القاضي دلانسي إلى هيئة المحلفين، الأمر الذي أثار استغراب الناس، حتى أن أحد أعضاء حزب المحكمة تساءل وهو يحتسي نبيذ ماديرا المعتق في "حانة تود": ما الذي يحمل "الجورنال" على نشر خطاب هو ضده؟ .. والواقع أن جماعة حزب المحكمة لا يفقهون لغة الاستبداد التي يستعملونها، وهذا ما حمل السيد زينجر على نشر خطاب دلانسي لتدل على استبداده بكلامه بالذات.

وظلت العبارة الواردة في آخر الصحيفة كما كانت سابقًا وهي "يطبعها ويبيعها: بيتر زينجر" ، أما العمل فتقوم به كاترين فهي التي تجري الحسابات، وتشتري الورق والحبر، وهي التي تنضد الحروف وتقرأ المسودات، وتحرر الأنباء الخارجية، وقد زادت في تعليم صغارها شئون

الطباعة، وكانت تنزع زجاجة الويسكي من يد العامل الطباع المساعد كلما أخذ جرعة، ليظل محافظًا على وعيه إلى أن يتم طبع الصحيفة، وخلاصة القول لقد تعلمت كاترين كيف تصدر الصحيفة بذاتها.

وفي يوم من أيام شهر كانون الأول، وبينما كان زينجر يتحدث إلى بعض المعتقلين من كوة سجنه، كان الشيوخ الذين انتخبوا حديثًا يعقدون جلسة في قاعة المحكمة التي تقع فوق رأسه مباشرة ..

وينص "نظام المدينة الجديد" الذي طبع زينجر قسمًا منه على جعل نصف هؤلاء الشيوخ قضاة في محاكم المدينة، وإذا ما قاضوا مجرمًا يكون المسجل "الذي يعينه الحاكم" قاضيًا للقضاة.

ونهض أحد هؤلاء الشيوخ السبعة وقال: يا زملائي قضاة مدينة نيويورك، أرجو أن استرعي انتباهكم إلى أن محلفين من هذه المقاطعة، وهما في هذه القاعة الآن يتهمان صاحب السعادة السيد فرانسيس هاريسون مسجل هذه المحكمة "أو قاضي قضاتها" بارتكاب عدد من الجرائم ! ..

وكان السيد هاريسون يرتدي كالعادة رداءه الزاهي، متربعًا في كرسي الرئاسة، فما أن بلغته كلمات الشيخ الموجهة ضده حتى تطلع إليه مذعورًا ..

وتابع الشيخ كلامه ملوحًا بأوراق بيده: ولدي الآن وثيقة اتهام ضد السيد هاريسون، مع نسختين من شهادة تتعلق بالجرائم المروعة التي اقترفها ..

فقفز قاضي القضاة منتفضًا وقال غاضبًا: هذه إهانة بشعة توجه إلي .. أما أنت أيها الشيخ، فقاطعه الشيخ الجديد بحدة وقال: نحن قضاة انتخبنا السكان ولن تخيفنا التهديدات!..

وبعد أن استولى هاريسون على زمام أعصابه وقف وقال: إنها لإهانة عظمى توجهونها ضد عضو مجلس صاحب الجلالة، ودار على عقبيه وخرج من القاعة بخطوات مضطربة، وشيّعه الشيوخ بنظرات واجمة، وبعد لحظات انتخبوا نائبًا للرئيس ليشغل كرسي الرئاسة، وتابع الشيخ كلامه قائلًا: أيها الزملاء القضاة، إنني أقترح دعوة هيئة المحكمين للانعقاد، لينظروا بالبينات وليصدروا حكمهم العادل.

وقال غيره من القضاة: إن رقابتنا تتناول شئون المدينة فقط، فهل للتهم الموجهة إلى سعادة قاضي القضاة صلة بأنظمة المدينة ؟ ..

فأجابه زميله الشيخ: أجل ولها صلة بالاعتداء على دستور المدينة، الذي أسهم في وضعه، فالتهمة الموجهة ضده أنه دبر اعتداءً جسمانيًا على الطباع زينجر، بتحريض جماعة من البحارة ومجهزي السفن للاعتداء عليه بالضرب حتى الموت، وبتزعمه جماعة من المتشردين الأغراب المسلحين، بشتى الأسلحة الخطرة، وبزجّه في السجن بصورة غير قانونية

أحد معاونيه لمدة تسعة أسابيع، وباعتدائه على البريد المرسل إلى أعضاء مجلس صاحب الجلالة، وغير ذلك من الجرائم العديدة الأخرى.

وبعد مذاكرة قرر الشيوخ القضاة دعوة هيئة المحلفين للانعقاد في الأسبوع القادم.

ولما اجتمعوا هالهم أمر القاضي هاريسون، وخشوا بأسه على اعتبار أنه صديق الحاكم، فأرجأوا النظر في قضيته أسبوعًا، وأخيرًا طرحوها على بساط البحث في عصر يوم ثلجي عاصف، وأدانوه.

وعقد الشيوخ اجتماعًا معرضين أنفسهم إلى غضب الحاكم، وحرروا أمرًا بإلقاء القبض على صاحب السعادة قاضي قضاة مدينة نيويورك، وزجّه في السجن العمومي، ولم يكن في المدينة سوى سجن واحد، السجن الذي يقيم فيه الطبّاع زينجر.

وتوجه "الشريف" جون هنريك سيمس برفقة الجنديين اللذين اعتقلا زينجر إلى بيت هاريسون وقرع بابه، فاستقبلتهم السيدة هاريسون وقد احمّرت عيناها من شدة البكاء، ووقفت عند الباب وقد تعلق طفلاها بثيابها، ثم أذنت لهم بدخول البيت للتفتيش عن زوجها، ففتشوه بدقة ولم يعثروا له على أثر.

فسألها الشريف: أين هو؟ ، فأجابته وهي تبكي وتنتحب: إنني أجهل مكانه.

لقد فر القاضي هاريسون، وكانت آخر جريمة اقترفها موجهة ضد زوجته وطفليه، فقد هجرهم ولم يكتب لهم أبدًا.

وحدثت كاترين زينجر همسًا من كوة باب السجن، بما حل بهاريسون ورثت لحالة السيدة هاريسون، فهي امرأة هولندية الأصل وتنتمي إلى الكنيسة الهولندية في المدينة.

فعلق زينجر على هذه الأنباء بقوله: يلوح لي الآن أن كل إنسان يطالع "الجورنال" لا بد وأن يضع الذنب على رأس جوسي بالذات.

فأيدته كاترين بقولها: والواقع أن الحاكم جوسي قد وضع هاريسون على رأس "الغازيت" بالرغم من الجرائم العديدة التي اقترفها، وكان يساعده في إخفاء جرائمه، ويعيد تعيينه سنة بعد سنة في منصب قاضي القضاة.

فأجابها زينجر: من يدري يا كاترين، إن هذا الحادث سيلقن الحاكم درسًا قاسيًا، فيحجم عن جعل المعوجين والفاسدين أعوانًا له.

الفصل الخامس والعشرون

قضاة يأتمرون بأمر الحاكم

لقد تحير زينجر في إدراك كنه التغيير الفجائي الذي طرأ على سلوك السجان والشريف ونحوه، فنقلاه ذات يومٍ من سجنه الأرضي إلى غرفة في الطابق الأعلى من السجن، حيث النور وبعض الدفء، ولم يجد الشريف سيمس غضاضة في الدخول إلى غرفة زينجر والتحدث إليه بروح الود، برغم أنه أحد أعضاء حزب المحكمة.

وسمح لكاترين وأطفالها أن يزوروا عائلهم في السجن، وفاقًا للعادة المتبعة في السجون الإنكليزية، وحدث ذات مرة أن أرسل الشيخ ريب فان دام أحد أبنائه الكبار إلى السيدة زينجر زائرًا مشجعًا، وقدم لها بمثابة هدية قطعة كبيرة من اللحم المقدد، فأعدتها لزوجها وحملتها إلى السجن.

فما كان من زينجر إلا أن أقام وليمة كبيرة حضرها السجان وعدد من المساجين وكان بينهم المتهم بالسرقة، والرجل الذي طعن زميلة وهو في حالة سكر، ومزور وخادمان فرا من بيت الخدمة، والطبّاع وزوجته وأطفالهما، وهكذا اجتمع القوم حول مائدة واحدة في السجن، وهم يتمازحون ويرسلون النكات ويغنون إلى أن ذابت الشموع.

وسرعان ما اتضح لأصدقاء الحاكم أنهم لم يحطموا "الجورنال" بزج صاحبها في السجن، فقد ظلت تواصل نضالها بالشدة التي عرفت بها.

أما "الغازيت" التي يتولى تحريرها الآن الشيخ برادفورد ذاته، فقد انسحبت من ميدان النضال تمامًا، وكف قراؤه عن الكتابة له، باستثناء ما يرسلونه من نصائح تتعلق بزينة السيدات والعناية بالصحة، وبعض الرسائل التي تقترح على الحكومة تشجيع المزارعين على زراعة القنب المستعمل في صنع الحبال للسفن، فصحيفة برادفورد اليوم ليست تلك الصحيفة التي عرفها القراء منذ ست سنوات خلت.

وعلم زينجر في نهاية شهر كانون الثاني، أن النائب العام برادلي سيدعو هيئة المحلفين للنظر في قضيته ثانية، وجاء "الشريف" ظهر يوم ليقول له: أجل يا بيتر لقد تذاكر المحلفون بصددك طوال الصباح لكنهم لم يجدوا شيئًا يدينك.

فسر زينجر لهذا النبأ معتقدًا أن القوم سيطلقون سراحه على الفور، وتابع "الشريف" حديثه قائلًا: غير أن القاضي دلانسي خاطب المحلفين بقوله: إذا وجدتم زينجر غير مذنب فستجرمكم المحكمة بتهمة إصدار حكم قبل الاستماع إلى البينة !..

واستدعي الطباع بعد ظهر اليوم إلى الطابق العلوي من السجن حيث قابل محامييه في غرفة التشاور، وسألهما باهتمام زائد: أيطلقون سراحي؟..

فهز السيد ألكسندر رأسه بحزن، وكانت ضفيرته الصغيرة تتأرجح بين كتفيه وأجاب: كلا فالنائب العام برادلي قد أعد بلاغًا ضدك !..

فارتمى زينجر على كرسيه وقال: وما المعنى من ذلك؟ ، قال المحامي: العادة المتبعة أنه إذا ما حرر النائب العام اتهامًا ضد أحد، ويسمى هذا الاتهام "بلاغًا" فإن الشخص المتهم يقدم إلى المحاكمة كأن هيئة المحلفين هي التي أدانته !..

احتج زينجر قائلًا: وهل يحق لبرادلي أن يتخذ مثل هذه الإجراءات بعد أن اقتنعت هيئة المحلفين ببراءتي؟ ..

فأجابه السيد ألكسندر: لقد كنت أنا نائبًا عامًا قبل برادلي، وكان يحق لي أن أقدم أي شخص لا يعجبني شكل أنفه مثلًا إلى المحاكمة على أساس "البلاغ" ، لكنني كنت أمقت ممارسة هذا الحق، ثم جاء برادلي من بعدي وراح يلجأ إليه في كل مناسبة تحلو له.

وأخذ السيد ألكسندر يرتب أوراقه قلقًا ويقول، لقد عملت منذ ثماني سنوات مع صديقنا موريس الابن، وكان وقتئذٍ عضوًا في مجلس صاحب الجلالة، عملنا معًا على وضع تشريع يحرم ملاحقة إنسان على أساس البلاغ، ثم أقر المجلس التشريعي هذا التشريع فيما بعد وأصبح قانونًا، ولكن لسوء الطالع قد تركنا في ذلك القانون ثغرة للذئب، فذكرنا وقتئذٍ أنه يحق للنائب العام أن يقدم شخصًا إلى المحكمة بعد أن يحصل على توقيع قاضي قضاة المحكمة العليا، وأنت تعرف ولا ريب أن

والد السيد موريس كان وقتئذٍ قاضي القضاة، ولم يخطر ببال أحد منا أنه سيأتي يوم نكون فيه نحن تحت رحمة حاكم آثم فهذه هي الحقيقة، وعليك أن تتوقع مثولك أمام القضاء.

تساءل زينجر بائسًا: فما العمل بعد أن أدانني القضاة؟..

فأجابه السيد سميث بلهجته الصريحة القوية: لا يخفى عليك يا سيد زينجر أن هؤلاء القضاة غير منصبين قانونًا، وقد عينهم الحاكم جوسي حسب مشيئته.

قال زينجر: أجل إنني لا أجهل ذلك، وهذا يعني أن بميسور الحاكم طرد هؤلاء القضاة إذا هم اتخذوا قرارًا يخالف رأيه، وهذا عين ما فعله مع السيد موريس الأب.

فقال له سميث: وأنت تدري أي حكم يريده الحاكم ضدك؟..

فارتعش زينجر وتذكر ما قاله له لويس موريس الفتى ذات يوم: "لا يستطيع أي شخص أن يشعر بالأمن والطمأنينة ما دام القضاة يأتمرون بأمر الحاكم" ، والمعنى من ذلك أن زينجر مهدد بالموت شنقًا، والحاكم جوسي يريد له هذه النهاية، وسيأمر قضاته أن يصدروا ضد الطباع حكمًا بالموت، وسينصب له مشنقة عند "غدير المياه العذبة" حيث لا يكترث به قطيع البقر الذي يرعى في المرج، ولعل عصفورًا يحط على رأسه بعد أن يتفرق الناس الذين راقبوا عملية الإعدام، وتذكر بيتر

المشنقة التي لاحت لناظريه عندما بلغ مع أسرته ميناء نيويورك آتيًا من إنكلترا.

وتابع السيد سميث كلامه قائلًا: وسنذهب اليوم للنظر في براءات القضاة، وسنطالب بألا يخضع هؤلاء القضاة لإرادة الحاكم.

فأجاب زينجر: أجل على هؤلاء القضاة ألا يذعنوا لأمر الحاكم، وإلا ساءت العاقبة!..

الفصل السادس والعشرون

أينبغي على القضاة أن يكونوا أحرارًا ؟..

قدم المحاميان اعتراضهما إلى المحكمة، غير أن القاضي دلانسي أرجأ النظر فيه لأسباب "فنية" .. وسألهما الانتظار إلى ما بعد العطلة القضائية.

وهكذا ظل زينجر في سجنه مدة ثلاثة أشهر أخرى، و"الجورنال" لا ينفك يناضل نضالا جريئًا.

وفي شهر نيسان التأمت المحكمة، ولما ولجها الطباع وجدها تغص بمئات الناس، واسترعى انتباهه أن عددًا من الحضور يسجلون كل ما يقال في الجلسة، وجو القاعة مشبع بروح التهييج.

ولما احتل القضاة مقاعدهم نهض السيد ألكسندر وشرع بالكلام، وكان الفارق عظيمًا بينه وبين القاضي دلانسي، فألكسندر رجل في الثالثة والثلاثين من عمره، مديد القامة قوي البنية، وكأنه عامل يقوم بالأعمال الشاقة، أما دلانسي ففي الثلاثين من عمره وهو رجل قدير، لكنه أضعف من أن يفتح كتابًا، ومعتد بنفسه كثيرًا ومصفرّ الوجه، وقلق..

قال السيد ألكسندر في اعتراضه: إن موكلي جون بيتر زينجر يرفع اعتراضه إلى صاحب السعادة جايمس دلانسي.

ومال زينجر إلى الأمام قليلًا ليستمع إلى محاميه، قال إن على القضاة البتّ في القضايا المعروضة عليهم وفقًا للقانون والعدالة، غير أن قضاة هذه المحكمة لا يستطيعون اتّباع هذين المبدأين لأنهم يخضعون لأوامر الحاكم جوسي، وأن هذا الحاكم يستطيع طردهم من منصة القضاء إذا هم خالفوا له رأيًا، وعلى ذلك فهؤلاء القضاة أعجز من أن يقاضوا زينجر وفاقًا للنصوص القانونية !..

واغتبط زينجر الواقف في "قفص الاتهام" لهذا التحدي، وألقى نظرة حوله فوجد الجمهور متحمسًا وقد سره ما سمع كما سر له زينجر، فانتعشت نفسه وارتاح لوجود عدد كبير من الناس الأقوياء إلى جانبه.

وحول نظره إلى القاضي دلانسي، فرآه يلهث من الغضب وسمعه يقول: يترتب عليكما يا سيد ألكسندر ويا سيد سميث أن تتحملا تبعة هذا الاعتراض..

فأجابه السيد سميث واقفا ومال بجسمه العارم إلى الأمام وقال بلهجة قوية: وإنني أيضًا درست هذا الاعتراض، وعلى استعداد تام لتحمل تبعاته، وأغتنم هذه الفرصة لأعرب عن ارتياحي لحث الاعتراض على القضاة الذي يتمتع به الرعايا الإنكليز، وإنني أدافع عن هذا الحق حتى ولو كلفني هذا الدفاع حياتي!..

ومرت لحظة كان القاضي دلانسي زعيم حزب المحكمة، والسيد ألكسندر زعيم حزب الشعب، يسددان فيها النظر أحدهما للآخر في جو صامت ثقيل الوطأة.

ورفع السيد سميث أربعة كتب وقال: أيسرّ صاحب السعادة سماعي؟..

فأجابه دلانسي ساخرًا: إننا لا نود سماع اعتراضاتك هذه فأنت وزميلك ترغبان في الحصول على شعبية من وراء هذه الاعتراضات، ولكنكما وصلتما بالقضية إلى نقطة تتطلب أحد حلّين: إما أن نتخلى عن منصة القضاء، وإما نمنعكما من حق المرافعة، ونحن نقرر الأمر الثاني بحقكما.

وتلفت السيد سميث على عجل صوب السيد ألكسندر، ليتأكد فيما إذا كان قد أخذ علمًا بكلام دلانسي، وساد القاعة وجومٌ شديد، ثم انبرى سميث إلى قاضي القضاة وقال له: لم يحدث أبدًا أن أوقف محامٍ عن الدفاع لتمسكه بأهداب القانون، وهذه أوامر مشربة بروح الاستبداد والانتقام!..

وصعق السيد زينجر لما سمع، وتمسك بحاجز قفص الاتهام خشية السقوط، فمنذ لحظات كان يتباهى بأن محاميين من أقوى محاميي المستعمرة يدافعان عنه، وفي أقل من رمشة عين أصبح وحيدًا، لا يجد من يدافع عنه في هذه القضية الخطرة .

ولأول مرة يدرك الطبّاع معنى الخوف، ولقد أخيف في السابق مرارًا، لكن الحالة الآن تختلف اختلافًا عظيمًا عن سابقاتها، ففي الماضي أحرقوا صحيفته، وأثاروا بعض الرعاع لإحراق مطبعته، ثم احتجزوه أسابيع في غرفة رطبة مظلمة، والآن يتركونه يتخبط وحيدًا في حبائل القانون التي لا يفقهها، حيث يستطيعون تطويقه وتحطيمه، وهذا يعني في نهاية الأمر إرساله إلى حبل المشنقة.

فجف حلق زينجر وارتعشت يداه، وهو يتلفت يمنة ويسرة باحثًا عن الأصدقاء، وقد خيل إليه أن وجوه الحاضرين قد انقلبت فجأة إلى وجوه معادية.

وحاول الطباع أن يستعيد السيطرة على إرادته، مقنعًا نفسه بأن هذا القاضي الصغير المتباهي بنفسه لن يتمكن من إرهابه، فرفع كتفيه ودفع صدره إلى الأمام وسدد إلى القاضيين نظرات كلها مقت واحتقار.

والتفت دلانسي إلى الكاتب وقال له: "سجل ما أمرت به بصدد المحامين، وترفع المحكمة مدة عشر دقائق، ريثما تعد القضية التالية" ، وخرج دلانسي وفيليب في إثره.

الفصل السابع والعشرون

محامٍ لزينجر

سار زينجر في إثر السيدين ألكسندر وسميث من قاعة المحكمة إلى غرفة المشاورة، وارتمى المحاميان على مقعديهما وقد ارتسمت على وجهيهما تعابير هي أقرب إلى الاضطراب منها إلى الخوف.

وحاول زينجر النطق، لكنه إذ لاحظ هذه التعابير المرتسمة على وجهي محاميه التزم الصمت، لقد أدرك على الفور أنه ليس وحده الواقع في المأزق الحرج، فالمحاميان قد أصبحا في لحظة واحدة محرومين من حق الدفاع، بعد أن قضيا حياتهما كلها في هذا الحقل، وإن فقدانهما هذا الحق جاء نتيجة لدفاعهما عنه.

وزفر السيد ألكسندر زفرة عميقة وقال: أجل إن قرار دلانسي في هذه القضية هو أول قرار من نوعه يتخذ في تاريخ القضاء، وهؤلاء الناس ليسوا طغاة فحسب وإنما هم يبتكرون أشكالًا جديدة للطغيان.

وفتح باب الغرفة على مصراعيه ودخل منه لويس موريس الفتى، وقد انعقد لسانه من السخط، وتقدم إلى السيد ألكسندر وشدّ على يده.

وتكلم السيد ألكسندر مخاطبًا زينجر: إنني لا أعرف في نيويورك أي محامٍ يستطيع الدفاع عنك بعد أن حرمنا من هذه المهمة، وهناك أربعة أو خمسة محامين لكنهم كلهم من أنصار حزب المحكمة، أو يخافون القاضي دلانسي، وأقترح عليك أن تعود إلى قاعة المحكمة، وتطلب منه أن يعين لك محاميًا.

فأجاب السيد موريس محتجًا: كلا هذا لن يكون، فإذا لم نجد محاميًا في نيويورك سنوكل محاميًا من بوسطن أو فيلادلفيا، سنحضر أفضل محامٍ في أمريكا، وسأتولى دفع أجرته بذاتي !..

وتلفت زينجر إلى السيد ألكسندر طالبًا المشورة، فقال له الاسكتلندي المديد القامة: سنبحث هذا الأمر بتروٍ، أما الآن فعليك أن تطلب من المحكمة أن تعين لك محاميًا.

وذهب زينجر إلى قاعة المحكمة بحراسة الجنديين، فوجد دلانسي منهمكًا في معالجة قضية أخرى، ولكنه ما أن رأى زينجر حتى طرح هذه القضية جانبًا وسأله ماذا يريد؟

فازدرد الطباع ريقه من شدة الدهشة، فابتسم له القاضي مشجعًا، وهنا نطق زينجر قائلًا: إنني أسألكم يا صاحب السعادة تعيين محامٍ ليدافع عني!..

كان القاضي مستعدًا لمثل هذا الطلب، فأجاب على الفور لقد قبلنا طلبك هذا، وعيّنا المحامي جون شامبرز ليدافع عنك.

وتقدم محامٍ حسن الهندام من زينجر، وصافحه كأنه كان يتوقع هذا الأمر مقدمًا، وهمس ببضع كلمات في أذن الطباع، ثم التفت إلى دلانسي وقال: إن موكلي سيقدم طلبًا إلى المحكمة يثبت فيه أنه "غير مذنب" بالنسبة للتهمة الموجهة ضده، وإنني أرجو صاحب السعادة تعيين يوم للنظر في قضيته.

فأجاب القاضي دلانسي: لقد عينا يوم الإثنين الرابع من آب للنظر في القضية التي رفعها النائب العام ضد جون بيتر زينجر.

وأحس الطباع بارتياح لمعرفته اليوم الذي سيحاكم فيه، بعد مماطلة دامت عدة أشهر.

وكان أحد مرشحي حزب المحكمة في الحملة الانتخابية الضاربة وخذل ب 35 صوتًا ضد خمسة أصوات نالها هو، فشامبرز إذن خصم حزبي لزينجر، خصم لا مفر من قبوله للدفاع عنه.

ووصلت رسائل من لندن من القاضي السابق موريس، وتناقلتها أيدي أعضاء حزب الشعب، وحملتها كاترين إلى زينجر في سجنه، وتلتها عليه فأصغى إليها باهتمام زائد، وهو يمني نفسه بأن يتمكن هذا الرجل البارز من اتخاذ التدابير اللازمة في إنكلترا لإنقاذه، وحمل السلطات هناك على استدعاء جوسي إلى بلاده.

وذكر السيد موريس في إحدى رسائله: "عندنا هنا مجلس عموم ومجلس وزراء، وأعتقد أن بعضهم يعلم بوجود مستعمرات وحكام، لكنهم يجهلون تمامًا الآلام المبرحة التي يعانيها الشعب الأمريكي .

وأحاطت كاترين زوجها المسكين علمًا بعد مرور أسابيع على تعيين شامبرز محاميا له، أن أصدقاءه فاوضوا المحامي جون كينسي من فيلادلفيا، لكنه اعتذر عن قبول مهمة الدفاع عن زينجر، بداعي أن الحاكم جوسي قد قدم له خدمة، وليس من اللياقة أن يقابل هذه الخدمة بعمل لا يرضى عنه!..

وزفرت كاترين وقالت: ومع ذلك سنواصل البحث عن المحامي الذي نريده، وأخذ زينجر يسير في سجنه جيئة وذهابًا وقال: إذن لا مفر من قبول عدوي ليدافع عني !..

فأجابته كاترين: ومن يدري أن السيد شامبرز سيفيدنا في دفاعه؟ ، ولا ننس أنه محامٍ وإذا ما ربح القضية، أية قضية كانت فإنه يرفع من مكانته في أعين الناس، فلندعه يسعى ولندع غيره يسعى أيضًا، وإذ تراءى لزينحر بصيص من الأمل، تلفت إلى كاترين طالبًا المزيد من الإيضاح..

فتابعت كلامها قائلة: إنني غير متيقنة تمامًا فيما إذا كان شامبرز عضو متين الجانب في حزب المحكمة، وخذلانه في الانتخابات الأخيرة

صدمة عنيفة له، وقد قال لي بهذا الصدد إن هذه الانتخابات قد أظهرت له أن الحاكم جوسي ليس محبوبًا من عامة الناس.

وسألها زينجر بشيء من التردد: أتعتقدين أننا نستطيع اجتذابه إلى جانبنا؟..

فابتسمت وقالت: في يقيني يا زينجر أن السبب الذي حمل شامبرز على اتّباع حزب المحكمة، هو اعتقاده أن هذا الحزب مؤلف من الأثرياء وأصحاب النفوذ، ولما حدثته عن المكانة التي يشغلها بعض أعضاء حزب الشعب، وما يقتنونه من ثروة وأراضٍ وخدمٍ بدت عليه أمارات الارتياح والاهتمام.

وحملق زينجر بعينيه وقال: وأذكر لك مصداقًا لقولك إنني لما همست في أذنه أن السيد ألكسندر هو ابن عم إيرل أوف سترلينغ ووارثه في هذا اللقب أسرع شامبرز إليه يستشيره في قضيتي.

وأرسل زينجر ضحكة وقال: سنكون مسيحيين طيبين حقًا إذا ما تمكنا من تحويل عدو إلى صديق، حتى وإن فشل في إنقاذ عنقي من حبل المشنقة.

الفصل الثامن والعشرون

الاختبار الأول لمحامٍ جديد

وتوالت الأسابيع الطوال بطيئة وزينجر لا يزال رهين السجن، ومما كان يؤلمه بصورة خاصة توقف نشاطه طباعًا عاملًا، فهو في سجنه محكوم عليه بالبطالة والفراغ، فعضلاته آخذة في النعومة والتراخي، وهو يتحرق شوقًا إلى الحركة والعمل.

وإذ حل فصل الربيع كان الطباع دائم الجلوس إلى النافذة، يطرطق على القضبان، ويمتع نظره بأوراق الشجر الطالعة اليانعة، وكان في الأيام الدافئة يستنشق غبار السكر الصادر عن مصنع السيد بايارد الذي لا يبعد عن السجن كثيرًا، ويلذّ له أن يستمع إلى جلبة عمال المطافئ، كلما لجأوا إلى مضختهم الجديدة، الموضوعة في غرفة محاذية للسجن، لمكافحة الحرائق التي تشتعل في المدينة بين حين وحين.

وحدث في يوم الأربعاء السادس عشر من تموز، أن توفي أحد المساجين فجأة في غرفته، وفي هذا اليوم بالذات أقام الحاكم جوسي مأدبة فخمة احتفالًا بالانتهاء من إقامة حصن جديد للمدفعية، على "صخور وايتهال" ، "وقد سمي ذلك المكان باسم "باتري" منذ ذلك اليوم" وتوجه الحاكم وأعضاء مجلس صاحب الجلالة المنتمين إلى حزب المحكمة، وكثير

من "وجهاء المدينة وتجّارها" توجهوا جميعًا لوضع الحجر الأساسي لمنصة المدفعية، حيث ألقيت خطبة، ورفرفت الأعلام وأطلقت المدفعية نيرانها محيية.

واحتشد الناس ليراقبوا الاحتفال وليشتركوا في المأدبة الكبرى، وكان الحاكم وأصدقاؤه يتناولون الطعام في سرادق كبير أقيم خصيصًا لهذه الغاية، بينما كان الخدم يشوون ثورًا ضخمًا ليقدم لحمه للعمال ولعامة الناس، مع كثير من كؤوس الجعة.

فالكل كان مغتبطًا سعيدًا، حتى أن حزب الشعب ذاته قد تمنى أن تستخدم هذه المدفعية في الدفاع عن نيويورك في حالة نشوب حرب، غير أن صحيفة "الغازيت" كتبت بمناسبة هذا الاحتفال تقول: "وفي ختام هذا الاحتفال سار الحاكم بين رجال الحامية على شكل استعراض، فقذفت المدفعية حممها، وانطلقت آخر قذيفة من مدفع يأكله الصدأ، فانفجر وقتل ثلاثة أشخاص، وهم طفل وشاب، و"الشريف" "جون هنريك سيمس" ، وعلقت كاترين في "الجورنال" على موت "الشريف" تقول: أما فيما يختص بصفاته فالكل مجمع على أنه كان شريفًا بكل معنى الكلمة، والكل يتمنى أن يكون خلفه مثله، أما كونه اعتقل زوجي فهو في عمله هذا مأمور.

واستدعى زينجر في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم حارٍ إلى قاعة المحكمة لحضور عملية رسم المحلفين، فسرّه أن يرى في القاعة عددًا من أصدقائه وبينهم لويس موريس الابن، وفرد بيكر، وهنريك كوك العازف

على الأرغن، ونيكول سيجن صانع العربات والشيخ ريب فان دام، وهو لا يزال رئيسًا لمجلس صاحب الجلالة، غير أن الحاكم جوسي لم يدعه أبدًا لحضور جلسات هذا المجلس.

ودخل القاعة النائب العام برادلي في وقت متأخر، وهو يبتسم لأمر ما في نفسه، أما القاضيان فقد تغيبا عن حضور هذه الجلسة التمهيدية.

ولما جلس زينجر إلى خوان طويل بالقرب من محاميه السيد شامبرز الأنيق، عبقت روائح العطور والمساحيق في خياشيم الطبّاع، فتطاير وتشاءم وخيّل له أن شامبرز هذا قد تآمر عليه مع أعدائه.

لقد تعقدت قضية زينجر بسبب خطر الحكم بالموت الذي يهدده، والحالة هذه تتطلب من "الشريف" أن يختار ثمانية وأربعين محلفًا من قوائم الناخبين، ثم تختار منهم هيئة المحلفين، التي ستنظر في القضية وعدد أعضائها اثني عشر محلفًا، ولكن المدينة لا "شريف" لها الآن، والحاكم جوسي يقضي أيامه عند شواطئ نيوجرسي ولم ينتخب "شريفًا" آخر بعد.

وهكذا وقعت المسئولية على عاتق كاتب المحكمة وهو رجل جاف، متشدد يدعى جيمس لين، وهو في الوقت ذاته مساح أراضٍ، وقد طبع له السيد برادفورد خارطة بديعة لمدينة نيويورك.

وقال السيد شامبرز: بوسعك يا سيد لين أن تشرع في اختيار المحلفين، واغتبط الكاتب لهذه الثقة التي وضعت فيه، وسار في القاعة

منتفخ الأوداج، وفي يده لائحة مطولة، وأخذ يقرأ الأسماء الواردة فيها بصوت عالٍ.

وأصغى زينجر بانتباه إلى القائمة، فهي مؤلفة من حامية القلعة، ومفتشي الجمارك، وغيرهم من موظفي الحاكم جوسي مباشرة، وبينهم أفراد ليسوا من الناخبين، يضاف إليهم خباز جوسي وخياطه، وصانع أحذيته، وصانع شموعه ونجاره، وسائس اسطبله، وعدد من الشيوخ القدامى الذين خذلوا في الانتخابات الأخيرة نتيجة للحملات التي شنّها عليهم زينجر.

وتطلع الطباع نحو أصدقائه طالبًا النجدة، فشاهد لويس موريس الابن يتحدث إلى بعض أصدقائه ويشير إلى النائب العام قائلًا: هذا هو النائب العام، وقد قيل لي أن في يده أسماء بعض المحلفين النزهاء، وهو يسعى إلى إبعادهم عن الهيئة!..

وكف برادلي عن الابتسام فجأة، وأخفى قائمة الأسماء في جيبه مضطربًا.

واقتضى هذا الوضع من السيد شامبرز أن يفعل شيئًا من أجل موكله، فنهض وأجال نظره في الجمهور المتجهم الوجه، وسعل وقال: أيها السيد الكاتب إنني أرجوكم باسم موكلي أن تحضروا سجلًا وأن تختاروا من هذا السجل فقط ثمانية وأربعين محلفًا قديرًا، وأن يجري هذا الاختيار بحضورنا كما هي العادة المتبعة.

وفرك زينجر يديه فرحًا، ومال بجسمه إلى الأمام قليلًا، وجذب سترة المحامي بلطف وهمس في أذنه قائلًا: هذا عمل طيب استمر فيه قدما!..

فسخط الكاتب وأجاب: هذه قائمة بأسماء المحلفين جاهزة، ومر بيده على القائمة التي وضعها هو بالذات..

وتلفت المحامي إلى كل جانب غير مرتاح لهذه الأزمة الجديدة، فرأى الوجوه مسددة إليه تترقب موقفة، وأخيرًا قال: أيها السيد الكاتب عليك أن تستشير المحكمة غدًا بهذا الشأن ..

فقفز زينجر من الفرح، وأمسك بكتفي محاميه مهنئًا إيّاه، كما أن السيدين موريس وفان دام أسرعا إلى شامبرز يصافحانه ويرجوان له كل توفيق.

واستدعى زينجر في صبيحة اليوم التالي إلى قاعة المحكمة، وكانت الشائعات قد انتشرت في المدينة بصدد حكاية المحلفين المزيفين، فقدم الناس بكثرة إلى المحكمة وبينهم جميع التجار المجاورين لمطبعة زينجر، وهؤلاء يعرفون تمام المعرفة إنه إذا ما تمكن حزب المحكمة من شنق زينجر فإن أفواههم ستكمم، وأقلامهم ستحطم وستكون حياتهم مهددة بالأخطار.

ونهض السيد شامبرز وشرح للقضاة ما فعله الكاتب في جلسة بعد ظهر اليوم الفائت، وارتفعت في جوانب القاعة دمدمة غضبٍ شديدٍ.

ويبدو أن المحامي قد اغتبط باسترعاء الانتباه إليه، وتطلع إلى زينجر متباهيًا، فأجابه الطباع هامسًا: استمر في مسعاك هذا استمر!..

تقدم المحامي من منصة القضاء، واضعًا أصبعيه بين أزرار صدارته المزركشة وقال بحزم: وإنني أطلب يا صاحب السعادة أن يصير اختيار المحلفين الثمانية والأربعين من قوائم الناخبين، كما ينص القانون وبحضور الفريقين المتعارضين.

فزفر القاضي دلانسي وأجال نظره في القاعة، فشاهد مئات الوجوه المهددة تتطلع إليه، وبعد قليل من الصمت قال القاضي بصوت خافت: لقد قبلنا اعتراضكم !..

وأسرع المحامي بعد هذا النجاح الذي أصابه، وأضاف قائلًا: وأطلب من الكاتب أن يعتبر اعتراضي على المحلفين الذين اختارهم اعتراضًا عادلًا، ولا بد من اختيار غيرهم وفق القانون، فأجابه دلانسي حانقًا: لقد قبلنا هذا الطلب أيضًا.

وأحس زينجر أن عبئًا ثقيلًا قد تزحزح قليلًا عن كاهله، فالمحلفون الآن سيختارون من بين الناخبين، ولا ريب في أنهم سيصدرون قرارًا عادلًا بحقه.

ولما سار بين حارسيه عائدًا إلى سجنه توقف لحظة ليصافح المحامي وليشكره على موقفه العادل من قضية المحلفين المزيفين، فابتسم المحامي وقال له هامسًا: لقد بلغتني أنباء هامة لها علاقة بقضيتك، ولا أستطيع

إبلاغك شيئًا عنها الآن، وثق أن لك أصدقاء يعملون من أجلك، غير هؤلاء الذين كانوا في القاعة منذ حين !..

لقد حيرت هذه العبارة زينجر فما الذي تعنيه؟.. ، وتراءى له أن شخصًا ما قد تحدث إلى المحامي شامبرز، أو كتب إليه يسأله العناية بقضية موكله، ولكن من يكون هذا الشخص؟..

وتابع زينجر سيره بين حارسيه رافع الرأس، مقتنعًا بأن أمامه فرصة طيبة لمواصلة النضال.

الفصل التاسع والعشرون

الغاية من نظام المحلفين

جلس زينجر في سجنه إلى طاولة نثرت عليها الأوراق، وكان في فورة من العمل، يمسك ريشة الكتابة بين أسنانه، مرفوع الكمين وقد تلطّخ شعره ببقع من الحبر وهو يعبث به بأصابعه.

ووضع تحت المحبرة مسودة مقال على غاية من الأهمية، لينشر في "الجورنال" في الأسبوع القادم، وكان يمسك بيده رسالة خطها هو وأمامه سبعة بيانات وصلت من أوروبا مؤخرًا، وسبع عشرة رسالة بعث بها أصدقاء له يعرضون فيها مساعدتهم له.

فأهمل الطباع كل شيء، والتقط مسودة المقال الموضوع تحت المحبرة، وقد علّق عليه رئيس التحرير السيد ألكسندر بقوله: إنه لا يوافق على نشره قبل استشارة زميله السيد وليام سميث، وكان زينجر يتوقع زيارتهما له في أي وقت.

وأخذ زينجر يطالع المقال مرة بعد مرة، وهو يقرع الطاولة بأصابع يده اليمنى، ثم نهض على حين غرّة وأخذ يسير في الغرفة جيئةً وذهابًا، وكلما وقعت عيناه على العبارات الواردة في هذا المقال اهتاج وتوترت أعصابه.

لقد حمل السيد لويس موريس الابن هذا المقال إلى "الجورنال" قائلًا إن أباه نسخه عن كتاب صدر في لندن حديثًا، إلا أن زينجر ارتاب في أمره وراح يعتقد أن القاضي السابق موريس الأب كتبه بنفسه، ولم ينسخه عن كتاب ما، وقد بنى حكمه على الأسلوب الذي كان يحرر به مقالاته في السنين الماضية.

وكان المقال هذا عبارة عن حوار بصدد واجبات المحلفين وامتيازاتهم، وحقوق المواطنين وفاقًا "للماغنا كارتا" لقد فكر زينجر كثيرًا في هذه الوثيقة التاريخية، لكنها أصبحت اليوم في نظره تنطوي على معانٍ عظيمة الأهمية بالنسبة لقضيته.

فالقاضي دلانسي سيطلب من المحلفين أن يقرروا فيما إذا كان المتهم يصدر صحيفة أم لا؟..، وسيكون جوابهم بالبديهة: نعم إنه يصدر صحيفة اسمها "الجورنال"، أما السؤال الثاني وهو: هل طعنت هذه الصحيفة بأحد وحرضت على أحد، فمن مهام القاضي أن يجيب عليه بنعم أو لا !..

والحل الوحيد الذي سينقذ زينجر من الهلاك، هو أن يتولى المحلفون الرد على السؤالين معًا، فهل يجد المحلفون الجرأة الكافية للإصرار على هذا الطلب ؟..

فرد عليه زينجر بقوله: ما الفائدة من المحلفين إذا كان القاضي دلانسي يفعل ما يحلو له؟.. ، وبوسعه في الحالة هذه أن يحاكمني دون

الرجوع إلى محلف واحد، والآن إما أن يتقيد القضاء بما ورد في هذا المقال، وإما أن يحكم عليّ بالموت !..

فعلق سميث على ذلك بقوله: وإذا تمكن أعداؤنا من إعدامك فستصدم الصحافة في أمريكا لمدة مائة سنة على أقل تقدير..

قال الطبّاع: ولكننا لا نريد أن نخدع أنفسنا بنشر بيانات خاطئة..

فهز السيد سميث رأسه قائلًا: أجل إننا لا نريد ذلك طبعًا.

وقلب السيد ألكسندر المقال بين يديه وقال: في رأيي أننا إذا ما نشرنا هذا المقال، نكون قد قمنا بأعظم عمل في هذه القضية، قال ذلك وسدد إلى زميله السيد سميث نظرات كلها صدق، وسأله: قل لي يا صديقي أتعتقد أن بوسعنا الاعتماد على هذا المقال كقانون صالح ؟..

وفغر السيد سميث فاه قبل أن يجيب ثم أقفله، وكان وجهه رزينًا، وفيه مسحة من الرعب، وبعد لحظة من الصمت قال: إنك تعني "بالقانون الصالح" القانون الساري المفعول حتى أيامنا هذه .

فأجابه السيد ألكسندر: أجل، قال وعلى ذلك هاك جوابي: إننا لا نجهل يا صديقي أن مضمون هذا المقال لا يطابق تماما "القانون الصالح" الساري المفعول حتى الآن، لكنه يطابق تمامًا مفهوم العدل الإنساني، والله يريد أن نتمسك بأهدابه.

فهب السيد ألكسندر وأمسك بيد زميله وقال: سأقف إلى جانبك بكل ما أوتيت من قوة، ورفع المقال وقدمه إلى زينجر قائلًا: تقدم .. وانشر !..

وكان المقال موضوعًا على شكل حوار بين محامٍ ومحلف، فالمحامي يقول: إن القوانين تحدد للقاضي صلاحياته، ومن هذه الصلاحيات إنه لا يستطيع رفض قرار المحلفين.

ثم يسأل المحامي المحلف قائلًا: لنفترض أنك كنت محلفًا في قضية اتهم فيها شخص بالخيانة، لأنه سار أمام رسم الملك وقبعته على رأسه، ولنفترض وجود عدد من الشهود يؤكدون أن ذلك مرّ برسم الملك دون أن يرفع قبعته، فما هو الموقف الذي تتخذه في هذه القضية؟..

فيجيب المحلف: تسألني عن موقفي في قضية كهذه؟.. إن ضميري يقول لي أن الشخص لم يرتكب جرمًا.

فيقول المحامي مثنيًا: أجل إنك تتخذ هذا الموقف لأنك رجل شريف، غير أن المحلف يسارع بشيء من الاضطراب ويضيف قائلًا: لكن القاضي يطلب في هذه الحالة أن يترك له حق الفصل فيها، وهذا موقف شاق ويثير الشفقة على المتهم المسكين، ولكنا لا نستطيع فعل شيء من أجله، وعلينا أن نقول بأنه "ارتكب جرمًا" ونترك للقاضي القول الفصل في قضيته !..

فيصيح المحامي: ليحفظ الله كل إنسان شريف من أمثال هؤلاء المحلفين، أتعتبر القاضي فوق العدالة؟ فستجيبني وفاقًا للقسم الذي أديته أنت: "من واجبي أن أنظر في قضية المتهم بصدقٍ تام، وأن أصدر حكمي فيها بصدقٍ تام أيضًا" وهذا يعني أن عليك إصدارَ حكمك وفاقًا لضميرك ولإدراكك على أكمل وجه"، فإذا كنت مقتنعًا بأن الرجل لم يقترف إثمًا فلماذا لا تبرئ ساحته ؟.. باعتبار أن الغاية من نظام المحلفين حماية المتهم من الاضطهاد !..

الفصل الثلاثون

الشروع بالمحاكمة

وما أن أزفت الساعة التاسعة من صباح اليوم الرابع من شهر آب سنة **1735** م حتى كان زينجر يسير إلى قاعة المحكمة، محاطًا بمحاميه وحارسيه، ولما ولجها وجد القاضي دلانسي والقاضي فيليب يجلسان في مقعديهما، وقد عقدا على رأسيهما أجمل الضفائر وارتديا أفخر الثياب، وهما لا يفعلان ذلك إلا في حالات خاصة لها خطورتها.

أما المحامي السيد شامبرز فكان يرتدي أيضًا ثوبًا من الحرير الرمادي الفاخر، وجلس الشيخ ريب فان دام، ولويس موريس الابن والسيد سميث وغيرهم من زعماء حزب الشعب، جلسوا قريبًا من زينجر يزودونه بالنصائح ويشدون من عزيمته بنظراتهم، وحاولت السيدة زينجر أن تمس يد زوجها، وقت أن مر بها فلم تتمكن من ذلك لإمساكه يده بعيدًا عن مكانها.

وجلس زينجر في قفص الاتهام، وألقى نظرة فيما حوله فوجد القاعة تغصّ بجمهور ضاجٍ مشوش، فأحس للحظة أنه أشبه بممثل على وشك أن يمثل دورًا دراميًا..

وكان المحلفون وعددهم ثمانية وأربعون شخصًا، يجلسون إلى الجهة اليسرى من القاعة، ويتطلعون هنا وهناك في حيرة وكأنهم لا يدركون السبب الذي حمل كل هؤلاء الناس لأن يهتموا بهذه المحاكمة، فهم يفترضون أن تكون المحاكمة جد بسيطة، فالمحلفون يقررون أن زينجر يصدر صحيفة، والقضاة يقررون أن هذه الصحيفة حملت في طياتها الطعن والتحريض، ثم يأتي الجلاد وينهي بقية الرواية.

وابتسم زينجر لأنه بلغ في نهاية الأمر آخر يوم من نضاله الطويل، وعاد لا يخشى شيئًا، فهو يرى أنه مطوق بعدد كبير من الأصدقاء الأقوياء، ولكنه لمزيد عجبه لا يرى بينهم أبرز هؤلاء الأصدقاء ألا وهو السيد ألكسندر، وكان زينجر في حالة معنوية عالية، يحس معها أنه على استعداد لأن يقول للقضاة إنه ينشر كل شيء عن الحكام أو القضاة صراحة، ولا يهمه إن لاقى حتفه في هذا السبيل، وتطلع إلى وجوه المحلفين ثانية ليقرأ فيها فيما إذا كانوا قد طالعوا المقال الأخير الذي نشرته "الجورنال" ثم تلفت إلى زوجته مستمدًا منها النشاط والتشجيع، وإلى جانبها صغيرته إليزابيث وصغيره نيقولا، كما رأى شقيقته وزوجها وابنها الكبير.

لكنه قلق لأنه لم يشاهد ابنيه الكبيرين جون وبيتر، فافترض أن المحكمة طلبتهما كشاهدين في قضية أبيهما، ووضعتهما في غرفة الشهود، ثم ألقى نظرة إلى الصفوف الخلفية فرأى عددًا آخر من إخوة زوجته وإخوانها يبتسمون له ويلوحون بأيديهم لتشديد عزيمته.

وإذ كان يتبادل النظرات مع هؤلاء الناس الأقوياء، رأى في وجههم حنانًا عليه وعطفًا على قضيته، فرغب من صميم قلبه أن يربح القضية من أجله ومن أجلهم معًا، فقرار المحلفين إما أن ينقله إلى بيته وأهله، وإما أن يبعده عنهم إلى الأبد.

وتفرس الطباع في وجهي القاضيين الشابين، فرأى فيهما انعكاسا لما يضمرانه له، إنهما يريدان له عقابًا صارمًا حتى لا يجرؤ أي طباع غيره على نشر الحقيقة، ولما وقعت عيناه على صديقه الشيخ فان دام، الذي أنقذه ذات يوم من السجن بالكتيب الذي فضح فيه مؤامرة الحاكم ضده، راح يتساءل فيما إذا كانت محاكمة اليوم ستنتهي ببراءته وعودته ثانية إلى ميدان النشر، ليتابع الدفاع عن المظلومين، أم أن محاكمته هذه ستنتهي بإرساله إلى السجن ثم إلى المشنقة، فتصمت صحيفته إلى الأبد، ويتمكن الموظفون المفسدون من نهب أي شخصٍ كان وطرحه في غياهب السجون ؟..

وجاء دور "الشريف" لأن يحصي المحلفين، ولم يكن هذا الرجل سوى بيللي جوسي ابن الحاكم جوسي، الذي تكاسل في اختيار "شريف" جديد لنيويورك ليحل محل الشريف سيمس الميت.

وانتبه زينجر لوجود بيللي هذا فارتاب في أمره، واسترعى انتباه محاميه إليه وفاقًا للترتيب المتبع في جدول الناخبين !..

فدهش القاضي دلانسي لهذا الطلب وتساءل عن السبب، فأجابه المحامي: لقد بلغني أن هناك تلاعبًا في قائمة المحلفين يا صاحب السعادة !..

فضج الناس وقد ضاقت القاعة بهم لهذه الفضيحة الجديدة، وتطلع زينجر ثانية إلى حيث يقف المحلفون ليستفسر من ملامحهم فيما إذا كانوا قد أدركوا الغاية من تلميح شامبرز هذا، فسره أن يرى بعضهم يهز رأسه أو يهمس في أذن زملائه، فابتسم لهم وإذ انتبه دلانسي إلى ابتسامة زينجر أسرع إلى تغطية هذه الفضيحة المسيئة لحزب المحكمة، بإصدار أمر للشريف بتعداد أسماء المحلفين وفاقًا لجدول الناخبين.

وأحذ الشريف ينادي كل محلف باسمه فيتجه هذا صوب مقاعد المحلفين ويستجوبه النائب العام برادلي، والمحامي شامبرز وقد أظهر هذا أنه محامٍ قدير ومحدث لبق.

وكلما استجوب المحامي محلفًا تطلع إلى زينجر، فإذا هز رأسه سلبًا طلب المحامي إعفاءه من المهمة، وإذا أبدى رضاءه، قال المحامي إن موكلي يوافق عليه كمحلف في قضيته.

وحدث أن رأى زينجر محلفًا صديقًا له فابتسم له مرحبًا، فما كان من النائب العام برادلي إلا أن تحداه وطلب إعفاءه.

وإذا ما وافق الطرفان على محلف ما، سئل على الفور أن يقف في المكان المعد للمحلفين، ثم يسأله الكاتب: أتقسم بأنك ستنظر بصدق في قضية المتهم جون بيتر زينجر، وتصدر فيها حكمًا صادقًا ؟..

فيضع المحلف يده على الكتاب المقدس ويقول: أجل إنني أقسم، وانتبه زينجر إلى أن هذا القسم هو القسم ذاته الذي نشرته "الجورنال" في عددها الأخير، وإلى أن نسخًا من صحيفة ملقاة على الأرض، حيث كان المحلفون يقفون قبل مناداهم بأسمائهم، فاضطرب ونبه زوجته إلى هذا الأمر، ولكنها أجبته بالإشارة تسأله الهدوء.

وأخيرًا تم اختيار اثني عشر محلفًا، من بين الثمانية والأربعين وأخذ زينجر يتصفح وجوههم، فكان بينهم رئيس الفعلة ثوماس هنت، ووجهه لا ينبئ عما يضمر، أما الأغلبية وعددهم سبعة فهم هولنديون الأصل، ويصلون في الكنيسة الهولندية التي يعزف زينجر فيها على الأرغن، وأحدهم وهو هرمان روتجرز كان منذ سنة ونصف السنة في عداد المحلفين الذين برّءوا ساحة زينجر من تهمة الطعن، وهكذا رأى الطباع في هذه المجموعة من المحلفين ما يطمئن إليه باله.

وتقاطر الناس إلى المحكمة بكثرة فغصت بهم المقاعد، ووقف غيرهم صفوفًا عند الجدران، أو جلسوا على عتبات النوافذ، أو احتشدوا عند الباب وفي خارجه.

وارتفعت جلبة في مدخل القاعة، فتطلع زينجر نحوها فوجد صديقه الطيب السيد ألكسندر يلجها، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الغبطة وبرفقته شيخ جليل معتل الصحة، وعلى رأسه ضفيرة طويلة لا يضعها إلا أثرياء القوم ووجهائهم..

وحول الطباع وجهه صوب أصدقائه مستوضحًا الأمر، فشاهد زوجته منفعلة كثيرًا، وقد وضعت قبضة يدها على فمها.

وتقدم الشيخ الجليل والسيد ألكسندر ببطء إلى الصف الأول من القاعة، يتبعهما خادمان يحملان عددًا من الكتب القانونية.

وسأل الكاتب لين الشيخ بصوت عالٍ: ما اسمكما؟ .. فأجابه الشيخ الجليل وردد الكاتب بصوته العالي قائلًا "أندرو هاميلتون المحترم" !.. ثم سأله الكاتب: أين قبلتم لممارسة مهنة المحاماة ؟..

فأجابه هاميلتون بصوت جلي: في لندن وببراءة خاصة من صاحب الجلالة الملكة "آن" ..

ونهض هاميلتون وصافح زينجر، فاكتست القاعة موجة من الهمس، وانحنى السيد ألكسندر نحو الطباع وقال له: أحيطك الآن علمًا بأن زوجتي قامت خفية برحلة إلى فيلادلفيا على يختها الخاص، لتفاوض هذا الرجل الجليل ليتولى الدفاع عنك، فعاد معها هذا الصباح، ولما كان معتل الصحة بسبب شيخوخته فلم نشأ أن نخبرك بأمره حتى لا تقطع الأمل إذا ما اعتذر عن المجيء إلى نيويورك.

وكان القاضي دلانسي مربد الوجه، أما أصدقاء الحاكم جوسي فكانوا يتهامسون فيما بينهم لأنهم يعرفون هاميلتون تمام المعرفة، ويدركون المكانة التي يتمتع بها في عالم القضاء.

وأسرع السيد ألكسندر وزود زينجر ببعض المعلومات التي تتعلق بالسيد هاميلتون فأفاده أنه كان زميلًا له خلال عشر سنوات في كثير من القضايا الهامة، وأن شهرته تعدت نيويورك في هذه المحكمة ذاتها، في قضية خاصة بعدم دفع الضرائب.

كما أنه المحامي عن وليام بن، وصديقًا حميمًا لبنيامين فرانكلين، وشغل منصب النائب العام لبنسلفانيا، وقاضي قضاة فيلادلفيا، وكان عضوًا لمجلس بنسلفانيا التشريعي، ثم رئيسًا لهذا المجلس خلال ست سنوات.

وأنعم زينجر النظر في هاميلتون فبدا له في الثمانين من عمره، ونهض هذا الشيخ متثاقلًا وجلس إلى جانب شامبرز، وهكذا بدأ زينجر قضيته بمحامين ويستمر بها الآن بمحامين آخرين.

وألقى النائب العام برادلي نظرة عصبية على المحامي الجديد، ثم تشاور مع مساعديه، وانتصب واقفًا وبدأ يتلو نص الاتهام بلهجة درامية..

وكان للعبارات الطويلة المليئة بالفقرات القانونية أن جلبت النعاس لزينجر، وفجأة سمع صوت النائب العام يردد عبارات أقامت الحضور وأقعدتهم، وكان من المستغرب حقا أن يعمد محامي جوسي بالذات إلى تلاوة هذه العبارات، التي تنعت الحاكم جوسي بالآثم المستبد.

ألقى زينجر نظرة على عجل على الحضور، فأحس بغبطة لا مزيد عليها، لا لأنه نشر هذه العبارات بحق جوسي فحسب، بل ولأنه حمل النائب العام على تلاوتها بصوت عالٍ، يسمعه أكبر عدد من الخلق احتشدوا في محكمة نيويورك العليا.

ولم يتوصل النائب العام إلى الأثر الذي يريده من اتهامه، فقد كان الناس يهزون رؤوسهم مبدين ارتياحهم للعبارات التي نشرها زينجر، وهذا لا ينفك يتطلع مبتسمًا.

وكان السيد هاميلتون وألكسندر طوال هذه الفترة التي تلا فيها النائب العام لائحة اتهامه يتحدثان إلى السيد شامبرز، وهذا يتحدث إلى السجين، ثم ينقل رأيه إلى السيد هاميلتون.

وأنهى برادلي في هذه الأثناء تلاوة لائحة الاتهام وجلس في مكانه، ونهض السيد شامبرز على الإثر وأخذ يتلو لائحة دفاعه، وانحنى أمام المحلفين بلطف وأوضح لهم ما الذي تعنيه عبارة "الطعن" وقال: "الطعن هو كل عبارة تنشر بنية خبيثة يقصد منها تعريض المطعون فيه إلى مقت الجمهور أو سخطه" .

وأصغى زينجر إلى أقوال شامبرز هذه منفعلًا لقلة ثقته فيه، غير أن هذا المحامي قد تمكن من درس قضية زينجر خلال ثلاثة أشهر خلت، ويميل إلى إبراز معلوماته القضائية، وهو بالإضافة إلى ذلك متحدث لبق ويعرف جيدًا كيف يؤثر في المحلفين، ثم ألقى شامبرز نظرة على السيد

هاميلتون وختم مرافعته قائلًا: وأرجو أن يخفق النائب العام في إثبات تهمة الطعن التي أتى على ذكرها.

وتقدم السيد ألكسندر وأمسك بذراع السيد هاميلتون كما أمسك السيد شامبرز بذراعه الأخرى وأعاناه على النهوض، فأثر هذا المنظر في نفس زينجر وحمله على القنوط، حقًا إنه معجب بالألقاب العديدة التي يحملها السيد هامليتون لكنه بات يخشى أن تكون حياته معلقة بهذا المحامي الكسيح الخائر القوى، الذي لا يعرف عن قضيته إلا اليسير.

الفصل الحادي والثلاثون

قضية الحرية

تقدم المحامي الشيخ نحو منصة القضاء خطوة واحدة، وعدل كتفيه المقوسين، ورفع يده الناعمة الجميلة وقال: إنني يا صاحب السعادة مهتم بقضية موكلي السيد زينجر، وأذكر قبل كل شيء أن حضرة النائب العام قد حاول أن يثبت في لائحة اتهامه أن موكلي يصدر جريدة "الجورنال" ويطبعها،

ويلوح لي أنه لا يليق بي أن أنكر ذلك أو أنكر أنه نشر شكاوى في صحيفته، وهذا حق يجب أن يتمتع به كل إنسان ولد حرًا، وإنني لأوفر على النائب العام المتاعب، في مناقشة الشهود حول امتلاك الصحيفة، وحول نشرها هذه الشكاوى، فأعترف بهذا الأمر مقدمًا، ولا أرى في عمل زينجر هذا ما يؤلف جرمًا.

وما أن أدلى الشيخ هاميلتون بهذا التصريح، حتى خيم السكون على حزب المحكمة لأنهم باتوا يعتقدون أن مهمة المحلفين قد انتهت، وأن على القضاة الآن إعفاء المحلفين من النظر في الشطر الثاني من القضية، وهو "أن ما نشره زينجر في صحيفته يؤلف طعنًا وتحريضًا" .

فنهض النائب العام برادلي على الإثر وهو يتمتم منفعلًا، ثم أخذ يقول: يا صاحب السعادة ما دام السيد هاميلتون قد اعترف بهذا الأمر، فما علينا الآن إلا أن نعفي الشهود من هذا الموضوع، إذ لا حاجة لنا بهم بعد.

فتحول السيد هاميلتون نحو النائب العام، وحرك يده بشكل درامي كأنه يمحو النائب العام وأصدقاءه وقال بصوت عالٍ: إذا كنتم قد أتيتم بالشهود لتثبتوا أن زينجر يمتلك صحيفة ويطبعها فنحن نقر ذلك أيضًا ونأخذ به !..

وأومأ زينجر بوجهه مؤيدًا الشيخ هاميلتون، وشاعت في القاعة موجة من الدمدمة، ونهض بعض الحضور عن مقاعده منتظرًا سماع أمر القاضي دلانسي بإعفاء المحلفين من مهمتهم، وعاد السكون وخيم على القاعة، وتوتر الجو إلى درجة كان زينجر يسمع معها لهاث الناس الذين يحيطون به.

وأنهك النائب العام في هذه الأثناء بالتهامس مع الكاتب، و"الشريف" بيللي جوسي، وجيء بالعامل الطباع وبولدي زينجر جون وبيتر، مع عدد من الجيران، جيء بهم جميعًا إلى قاعة المحكمة، حيث أفادهم الكاتب أن المحكمة لا ترى موجبًا لسماع شهادتهم، وتفرقوا في القاعة يبحث كل منهم عن مكان يقف فيه.

وانتعش زينجر إذ رأى ولديه، ولم يخامره أدنى ريب بأنه لو أتيح لهما التكلم في المحكمة لأدليا بالحقيقة، ولقالا قولًا يثير اعتزاز أبيهما بهما وفخره، ولما أخذ الصبيان مكانهما في القاعة لوحا لأبيهما بيديهما، غير مكترثين بالعدد الغفير من الناس الذين يراقبونهما عن كثب.

وبعد انتظار طال أمده قال القاضي الشاب: أيها النائب العام سر في القضية!..

وتعالت زفرات الرضا من الجمهور، وراح المحلفون يتطلعون في وجوه بعضهم البعض ويبتسمون، فالقاضي لم يخاطر بإعفائهم من المهم الخطيرة التي أنيطت بهم.

وأخذ النائب العام يرغي ويزبد، فرفع يديه إلى أعلى ثم أنزلهما على فخذيه دفعة واحدة، وخيل لزينجر والمحلفين أن النائب العام أخذ على حين غرّة وهو غير مستعد لمواصلة اتهامه.

وتحدث برادلي محاولًا إقناع المحكمة بوجهات نظره، لكن هاميلتون كان يفند حججه الخاصة باتهام زينجر بالطعن والتحريض، ويساعده في ذلك زميله شامبرز.

ثم قال برادلي إن الواجب يتطلب احترام الحكام وموظفي الحكومة، وإلا انقلب الناس عليهم وعصوا أوامرهم، وإن كل بيان مطبوع يهاجم الحاكم هو مادة طعن وتحريض، وعلى القانون أن يعاقب الطباع على عمله هذا.

غير أن هاميلتون سخر من كلام النائب العام هذا وتساءل: لكن ألا يجوز للشعب أن يشكو من الحاكم إذا كان ظالمًا ومفسدًا ؟.. ، ومتى كان نشر الحقائق يسمى طعنًا وتحريضًا ؟.. ، وطلب استدعاء شهودٍ ليقولوا إن ما نشره زينجر كان حقائق راهنة.

وارتاح الطباع لهذا الطلب وابتسم له، فقد أعجبه أن يرى الشهود يقفون في المحكمة ويؤكدون أن الحاكم جوسي قد نهب خمسين ألف "آكر" من الأراضي، وأغفل حق فان دام في المثول أمام محكمة تخضع لنظام المحلفين، وقبض مبالغ كبيرة على سبيل الرشوة، وتلاعب في الانتخابات، وغير ذلك مما نشرته "الجورنال" في حينه.

وارتعب القاضي دلانسي لهذا الاقتراح، وأخذ يجادل هاميلتون بقوله ألّا فرق عنده إذا كان زينجر قد قال الحق فيما نشره أو لم يقله، فالمهم في نظره أنه تعرض للحاكم، وفي هذا ما يكفي لإدانته بتهمة الطعن والتحريض.

وفنّد هاميلتون هذا الادعاء أيضًا بحججٍ قوية، أسكتت القاضي ووضعته في موضع الحمقى، ومع ذلك كان عليه أن يذعن لأوامر الحاكم جوسي ضاربًا بالقانون عرض الحائط، فهو لا يجيز لأي شاهد أن يدلي بشكواه ضد الحاكم في المحكمة، ولو فعل ذلك لكان نصيبه الطرد من منصبه على الفور، وعلى ذلك طلب من هاميلتون أن يكف عن مناقشته في هذا الموضوع.

ثم تحول هاميلتون صوب المحلفين وخاطبهم بلهجة درامية قائلًا: أيها السادة !..

أنتم وحدكم تدركون السبب الذي يحمل المحكمة على رفض سماع شهود الدفاع، فكل شخص في نيويورك يدرك تمامًا، فيما إذا كانت الأقوال المنشورة ضد الحاكم هي صحيحة أم كاذبة.

واستمر الجدال بين الجانبين، حتى ملّه زينجر ولقد استشهد برادلي بقضايا تاريخية عوقب فيها الطباعون، كما استشهد هاميلتون بقضايا معاكسة تقول بعدم تجريم الطباع إذا ما نشر شكاوى ضد الحاكم، وطلب من المحلفين تبرئة زينجر وفاقًا للواقع والقانون معًا.

وكان السادة ألكسندر وسميث وشامبرز يكدسون الكتب القانونية أمام السيد هاميلتون، بعد أن يضعوا الشارات عند الفقرات اللازمة له.

وأخيرا رفع هاميلتون صوته قائلًا: فالقضية التي تنظرون فيها أيها السادة ليست قضية بسيطة تتعلق بطباع مسكين، أو إنها تخص مدينة نيويورك وحدها، كلا إنها قضية كل إنسان حر في أمريكا، إنها قضية الحرية إطلاقًا !

وساد المحكمة سكون عميق حين أخذ السيد ألكسندر وشامبرز بيد هاملتون الشيخ وأعاداه ببطء إلى مقعده، فالكل كان على يقين بأن المحكمة تنظر في قضية عظمى!..

وقد أظهر محامي فيلادلفيا براعة درامية مشهودة، حتى أصبح مثلًا يضرب به خلال سنين عديدة "وبات الناس يقولون: هذا عمل بارع كبراعة محامي فيلادلفيا".

وفي الختام تقدم النائب العام برادلي إلى المحلفين وأعلن أمامهم متباهيًا: أن صاحب السعادة الحاكم وأعضاء مجلس صاحب الجلالة، يطلبون بألا يسمح لزينجر بأن يعود إلى إقلاق راحة الحكومة بنشره طعنًا أوتحريضًا ضد صاحب السعادة الحاكم، أو ضد رؤساء الحكومة القائمة في البلاد، وعلى ذلك فإن صاحب السعادة الحاكم، بالمشورة مع المجلس يطلب مواصلة النظر في هذه القضية.

فدهش زينجر لهذا الكلام، وأدرك منه أن الحاكم جوسي لا يريد من قرّاء الصحيفة أن يطلعوا على أعماله، وإنه سيعمد إلى توقيف هذه الصحيفة إن استطاع إلى ذلك سبيلًا، فالسؤال هو: هل يحق للصحف أن تحيط الناس علمًا بما يفعله الحاكم وموظفوه، أم أن لهؤلاء الحق باللجوء إلى التدابير غير القانونية لمعاقبة كل إنسان يشكوهم؟..

وتحول القاضي دلانسي غاضبًا إلى المحلفين، وطلب منهم بكل خشونة أن يدينوا زينجر، وأن يسرعوا في اتخاذ قرارهم هذا.

واختلى المحلفون في غرفتهم وهم يشعرون بمسئولية عظمى، وسار زينجر بحراسة الجنديين إلى السجن في انتظار الخاتمة.

الفصل الثاني والثلاثون

الحكم

استلقى زينجر على القش في سجنه بعد أن قضى خمس ساعات واقفًا على قدميه، وهو لا يدري أي قرار سيتخذه المحلفون في قضيته، فالقاضي يطلب منهم أن يجرموه، وأن يتركوا له حق إصدار القرار الذي يرتئيه، وإذا ما قالوا إنه "غير مذنب" فيسيئون بذلك إلى قاضي القضاة دلانسي، وربما ينتهي بهم الأمر إلى السجن..

ولم تنقض عشر دقائق حتى دخل السجان غرفة زينجر، وأيقظه من نومه العميق، فقال الطباع وهو لا يزال يغط في نومه: أجاء موعد الغداء؟..

فأجابه الحارس: كلا إنك مدعو إلى المحكمة، فهب زينجر واقفًا وقال: هل حانت لحظة لفظ القرار؟..

وسار في حراسة الجنديين إلى قاعة المحكمة، فوجدها تغصّ بالجماهير الضاجة الصاخبة، ووقف رئيس الفعلة توماس هينت بوصفه رئيس هيئة المحلفين، وهو على أهبة الاستعداد لإعطاء القرار.

فدعا الكاتب الحضور إلى التزام الصمت وصاح بأعلى صوته: أيها المحلفون هل اتخذتم قراركم؟..

فأجابه رئيس الفعلة بصوت عالٍ أيضًا: نعم لقد اتخذناه، إنه غير مذنب !..

وقبل أن يعي زينجر حقيقة هذا القرار بلغته زفرات زوجته، ورأى دموعها تمتزج بابتسامتها، كما رأى الجمهور وسمعه يصرخ بأعلى صوته: يعيش.. يعيش ! ..

وحاول القاضي دلانسي أن يقول شيئًا غير أن الجمهور أسكته بترديد كلمة: يعيش.. يعيش!..

وصاح دلانسي بأعلى صوته: أدعوكم إلى النظام في المحكمة وإلا وضعت زعماء هذا الشغب في السجن!..

وتدخل الربّان نوريس وهو أقدر ربان عرفته نيويورك، وصهر القاضي السابق موريس، وكان عائدًا من إنكلترا حديثًا، فدفع صدره العريض إلى الأمام وزأر قائلًا: إن المحاكم العليا في إنكلترا لا تمانع في الهتاف في حالات التبرئة، وكم هتفنا للمطارنة السبعة حين برئت ساحتهم؟..

ولم ير دلانسي بدًا من الانسحاب من القاعة الهائجة، وتبعه القاضي فيليب كما يتبع الخادم سيده.

ولما نهض المحامي هاميلتون استقبله الجمهور بالهتاف، وحمله الشباب على كرسيه في استعراض كبير وخرجوا به إلى الشارع، ثم إلى الحانة.

وقال "الشريف" بيللي جوسي مخاطبًا السجان: لا أدري ما الذي نفعله بالسجين!. فليس بميسورنا إطلاق سراحه دون أمر يصدره القاضي، وعلى ذلك أرى أن تعيده إلى سجنه !..

واقتاد السجان زينجر إلى سجنه وكانت نهاية عجيبة، واستدعى زينجر في صبيحة اليوم التالي إلى قاعة المحكمة، وكانت خالية من الناس تقريبًا، باستثناء زوجة زينجر وأطفالها والسيد شامبرز الفخور بالسمعة الطيبة التي نالها في هذه المحاكمة، وبعض الأصدقاء وبينهم الشيخ ريب فان دام.

ووقف السيد شامبرز وقال: إنني أسأل صاحب السعادة بكل تواضع أن يأمر بإطلاق سراح موكلي بعد أن أصدر المحلفون حكمهم ببراءته.

وكان دلانسي قد أدرك المعنى من خطاب الشيخ هاميلتون، ولمس أثر هذا الخطاب في الجمهور، فتغلب على انفعاله وخاطب الشريف قائلًا: هل من اعتراض لديكم لإطلاق سراحه؟..

فأجاب الشريف مضطربًا: يقول السجان إنه لم يسدد حسابه الخاص بالطعام والوقود !..

فتقدم الشيخ فان دام وسدد المبلغ بكامله، وخرج زينجر إلى الحرية بعد تسعة أشهر قضاها في السجن، وهو يحمل طفله الصغير فريدي على ذراعيه، وزوجته تسير إلى جانبه وهي تمسك بيد أحد أبنائها الصغار،

وأقام زعماء حزب الشعب في ذلك المساء مأدبة فخمة في "حانة الحصان الأسود" على شرف الشيخ هاميلتون، وقد علقوا على الجدار لافتة كبيرة كتبوا عليها بالحرف الكبير "الحرية والقانون!.." .

وألقى بعضهم خطبًا شكروا فيها هاميلتون على ما قدمه من خدمات جليلة لنيويورك وللإنسانية جمعاء، وقد رفض المحامي الشيخ تقاضي أي أجر على دفاعه المجيد.

ولما أبحر على يخت السيدة ألكسندر كتبت "الجورنال" تقول: "لما أبحر هاميلتون أطلقت مدفعية بعض السفن نيرانها محيية دفاعه القيم عن قضية الحرية" .

وأحس القاضي دلانسي أن من واجبه أن يحيط الحاكم علمًا بالأنباء الرديئة بذاته، فتوجه على الفور إلى القلعة بخطوات بطيئة، ودخل عليه وأعلمه بما جرى، وكان يتوقع أن يثور الحاكم في وجهه، لكنه بدلًا من ذلك ارتمى في مقعده صامتًا، وهو يفكر في الصحف التي ستتحدث في أعماله بصراحة، طيبة كانت أم رديئة، فأخذته هزة وتطلع إلى القاضي بعينين خاليتين من الأمل، واجتذب زجاجة الويسكي وصب منها كأسين.

والواقع أن الإنسان لا يستطيع العيش بلا اعتزاز، واعتزاز الحاكم جوسي قد ضاع في محاكمة زينجر، وبعد انقضاء أشهر قلائل وقع الطاغية طريح الفراش، وجاء فصل الشتاء وهو يحمل له الحمّى، وما أن أخذت الثلوج تذوب في مطلع الربيع حتى كان جوسي يرقد في قبره في

أرض كنيسة القلعة، وبالقرب من البيت الذي حكم فيه سعيدًا، وقد ماتت بموته الفكرة القائلة أنه يجب على الحكومة أن تتمشى وفاقًا لرغبات الموظفين وأهوائهم، وأن على الشعب أن يتقبل هذه الرغبات صامتًا مهما كانت خطرة ومروعة.

وجاءت نتيجة الأنباء فيما بعد تقول أن القاضي هاريسون الذي فر من نيويورك قد مات من الفاقة في بيتٍ حقيرٍ بلندن، وماتت معه لائحة طويلة من الجرائم المجهولة التي اقترفها، والتي كان يخفيها ببراعة لكنه لم يسلم من حملات "الجورنال" عليه في كثير من الحالات، لأن من أهم واجبات الصحافة أن تحدث الشعب صراحة عن الجرائم التي يقترفها بعض الحكام والموظفين المتسترين بظل الدولة وهيبتها..

أما القاضي دلانسي الشاب فقد تعلم كثيرًا من قضية زينجر، وأصبح فيما بعد نصيرًا قويًا لحقوق الشعب ومدافعًا مرموقًا عن الحريات العامة.

وفيما يتعلق بالقاضي السابق موريس الأب، فقد ظل يسعى في لندن إلى أن حمل حكومتها على توجيه رسالة تعنيف للحاكم جوسي، ثم عين حاكمًا ملكيًا على مقاطعة نيوجرسي، التي كانت وقتئذٍ منفصلة عن نيويورك.

أما زينجر فقد قضى أسبوعين وهو يجلس في الشمس أمام بيته، والناس يأتون إليه من كل حدب وصوب مهنئين، ولما استعاد صحته بعد

تلك الأشهر الأليمة التي قضاها في سجن القلعة، عكف على نشر "نظام المدينة الجديد" الذي بدأه ولم ينته منه، ثم سلم ست نسخ منه لشيوخ المدينة، وتقاضى منهم سبعة جنيهات كما نص الاتفاق الأول.

وأخذت "الجورنال" بعد قليل من الوقت تنشر وقائع المحكمة ثم عمد زينجر بمساعدة السيد ألكسندر إلى إصدار كتاب بعنوان "جون بيتر زينجر، قضيته ومحاكمته".

وانتشر هذا الكتاب انتشارًا واسعًا في أمريكا وقتئذٍ، وأعيد طبعه مرات عديدة، وكان لنشر قضيته هذه أثرها في حرية الشعب الإنكليزي نفسه، فقد أعيد طبع كتابه في إنكلترا خمس مرات.

وظل يصدر صحيفته كل يوم إثنين، وقد تعلم أن يكون حذرًا فيما يكتب، فاختفت تلك العبارات السليطة التي كان يستعملها في مستهل حياته الصحفية، لكنه ظل مثابرًا على نشر الحقائق، ولم يحاول أي حاكم أن يفعل معه ما فعله جوسي.

وقرر المجلس التشريعي جعل زينجر "طبّاع الشعب" لمدينة نيويورك بعد أن شاخ "طباع الملك" برادفورد، وبالرغم من ذلك كله ظل زينجر فقير الحال طوال الإحدى عشرة سنة التي تبقت من حياته، وخلف سبعة أولاد جعلوا سنيّه الأخيرة مليئة بالضجيج والصخب.

وبقيت "الجورنال" تصدر بعد وفاته حاملة في الصفحة الأخيرة منها عبارة تقول "تطبعها كاترين أرملة بيتر" وتابعت هذه الزوجة الأمينة تأدية

رسالة زوجها في جعل الصحافة الحرة سلاحًا قويًا لحماية أرواح الناس وحرياتهم.

وأكدت لها الحوادث بعدئذٍ أن محاكمة زوجها كانت أساسًا لحرية الكلمة والنشر في أمريكا، وصارت قضيته مرجعًا في القضايا المماثلة لها.

وعين لويس موريس الابن فيما بعد حاكمًا، ثم أصبح رجل دولة بارز، ولما كان رجلًا ذكيًا واسع الاطلاع، فقد اختير لأن يضع النص النهائي لدستور الولايات المتحدة، وهو الذي قال: "لقد كانت محاكمة زينجر النبتة الأولى للحريات الأمريكية" .

الفهرس